

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hi7ar-magazine.com

العدد السادس عشر / السنة الرابعة / يوليو - سبتمبر ٢٠٠٩

- الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي - فتح الله كولن
- المسلمون بين الشدائد واليسائر - أ.د. الشاهد البوشيخي
- مظهر جلال الربوية في القرآن - أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
- مدرسة صلاح الدين الدولية - أ.د. محمد الأحمد أبو النور
- سكة حديد الحجاز - صالح كولن



مَكَّةُ الْمَكْرَمَةِ الْمَدِينَةُ الْمُنَوَّرَةُ

ألبومات يلديز
للسلطان عبد الحميد الثاني



- صور تاريخية نادرة لل الحرمين الشريفين التقطت قبل 130 عام.
- ما أن اخترعت آلة التصوير حتى أرسل السلطان عبد الحميد أفضل المصورين إلى الأراضي المقدسة ليلتقطوا صور المشاهد المباركة.
- طبعة فاخرة تتضمن معلومات دقيقة عن الأماكن الشريفة.

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : +20222631551 الجوال : +20165523088

www.daralnile.com



المحتويات



- ٢..... الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي / فتح الله كولن
- ٨..... الفرد والطبقة والأمة / أ.د. محمد عمارة
- ١٣..... منهجية الاستمداد التكافلي لمعارف الوحي / أ.د. سعيد ضيار
- ١٨..... سكة حديد الحجاز / صالح كولن
- ٢٣..... شمس القلوب أبداً لا تغيب / السنوسي محمد السنوسي
- ٢٤..... البيروني رائد علم الجيولوجيا / أ.د. بركات محمد مراد
- ٢٩..... الطريق السريع، المسلك والساك / أ.د. عمار حيدل
- ٣١..... كلمات الله في معركة السلام / أ.د. فريد الأنصاري
- ٣٥..... أنت للإحسان أهل / أنس إبراهيم الدغيم
- ٣٦..... الجهاز العصبي يتكلم / أ.د. عرقان يلماز
- ٤١..... المسلمون بين الشدائد والبشار / أ.د. الشاهد البوشيخي
- ٤٦..... مظهر جلال الربوبية في القرآن / أ.د. محمد سعيد رمضان البطي
- ٤٩..... إنشاء حدائق الإبداع الحضاري / أ.د. عبد الحليم عويس
- ٥٣..... الأكوام المتعددة / صالح آدم
- ٥٨..... سجناء الوجود / أديب إبراهيم الدباغ
- ٦١..... مدرسة صلاح الدين الدولية / أ.د. محمد الأحمد أبو النور



EGYPT
7, el-Baramaka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Saabi
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +2022631551 Mobile: +20165523088

TÜRKIYE
Emniyet Mahallesi, Huzur Sokak, No:5
34676 Üsküdar-Istanbul/TÜRKIYE
Phone: +90(216) 318 60 11 Fax: +90(216) 422 41 40

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone: +1 732 868 0210 Fax: +1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution
الطريق للنزوح
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ رفعة محلسات
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Édition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، سماء، الحظ الدائري لغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقه للنشر والتوزيع
م.م. 6677 أبو ظبي
Tel: +971 266 789920

الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي

فتح الله علينا

إن جذور الإسلام لانهائية فوق الزمان والمكان، وعنوان النظام السماوي المنزل لفتح مغاليق القلوب جميعاً؛ ابتداءً من قلب أشرف البشر في الأرض ﷺ، وانتهاء بقلب البشرية التواق إلى "الخلود".

منذ أن نصب الإسلام سرادقه في الأرض وظف طاقاته كلها في السعادة الدنيوية والأخروية. الإسلام، اسم العرابط المستقيم الممتد من الأزلى إلى الأبد، مخاطبة القلوب، واستطاع أن يرسم صورته في كل وجدان، متفاعلاً



مع وحدات الحياة كلها.. فتم تناسب دائم بين تعمقه في الصلور وتأثيره في مفاصل الحياة؛ فيقلد عمق تغلغه في الأرواح وتجذره فيها، يطفح فيض تأثيره في حياتنا وتزداد انعكاساته فيما حولنا. بل نستطيع القول بأن ما نلاحظه في محيطنا من الشوق والرغبة والتلقي بالقبول نحو الإسلام إنما تتحقق متناسبة طرديا مع عمق هذه الصورة الداخلية المشرفة ومدى سعة إحاطتها، وهذا يعني أنه كلما كان هذا القبول المسبق ضاربا في أغوار أعماق الإنسان يقوى تأثيره في محيطه. وفي ضوء ما يلميه هذا الإذعان الداخلي يأخذ المجتمع وجهته في مسيرة حياته الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإدارية والثقافية.

نعم، إن المجتمع -من كل الوجه- يحمل في ملامحه خطوطاً مهمة من هذا السوازع الداخلي، وينعكس الفن والأدب إلى الخارج حامليين ألوان هذا المحتوى الداخلي ونقوشه، ويُسمع ويُستشعر في كل مكان بين سطور الوجود والأشياء صوتُ هذا المحتوى الداخلي ونَفْسُهُ وأدْوَهِ، ويشجي كل شيء مرئي أو خاف أسمعاً بأنغام رائعة يلمحنها لسان هذا المحتوى الداخلي الصامت بلا صوت ولا كلام.

ومن هذا السر فإن أصحاب القلوب التي فُتحت بالإيمان ما يلفظون من قول إلا وتُسَمِعُ منهم نغمات من الوجود السمردي.. وهؤلاء كلما يلقون نظرة إلى ما حولهم يحسبون أنفسهم في ممرات زمردية تؤدي بهم إلى سفوح الجنة، وهم بذلك يمزجون وعناء السفر بالسعادة التي سيلقونها في نهاية المطاف.. ففي كل مظان التأفف تراهم يسيحون قائلين: "مرحى... مرحى".

إن الكلمة المفتاحية لفتح القلوب هي "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، بحيث إن كل الخصائص الإيمانية -حسب الإسلام- تتأسس على هاتين الجملتين الوجيهتين اللتين هما تعبير عن حقيقة لها وجهان؛ أحدهما: غاية، والآخر: وسيلة. فالإيمان الذي هو كـ"شجرة طوبى" تنشأ من هذه البذرة تغطي بما توتي من ثمار المعرفة سماء حس الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تستحيل العلوم والمعارف كلها إلى العشق والاشتياق والحرص بمجمله داخلية وشعور وحس داخلي، ليحاصر ذاك الإنسان من كل جهة، فيصيرُه إنساناً جديداً قائماً على محور الوجدان... فتعكس هذه الحالُ على كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق. فتحمل عبادته وطاعته سمات ترسم بخطوط هذه العلاقة والرابطة، وذلك

قد لا يكون الإنسان في كل أحواله قاصداً هذا القصد أو متحرباً هذا الأمر، إلا أن حركة النظم الإيمانية في قلبه تقود كل تصرفاته، بإرادته أو من غير إرادته إلى هدف معين. ومن طبيعة الحال أن تنعكس ألوان "حركيته" الداخلية وأدائها على نوع حياته وأسلوبه وشخصيته ومناسباته الاجتماعية... وكذلك تبرز تلك اللهجة والأداء والأسلوب في أعماله الفنية وأنشطته الثقافية، لأن موقع الإنسان في الوجود، وغاية خلقه، ومقصود فعالياته، وتدايعات الفكر عن هذه الغاية وذلك المقصود، ووظيفته ومسؤولياته، ستحيط مع الزمان بكيانه وتحاصره، وتوجه في كل ساعة نحو التميز والفارقة إزاء الوجود الأوسع والأعلى بأشد المشاعر حيوية وتأثيراً.

هذا الفكر الأول الموجه، يتماهى في تأثيره على أنشطته الذهنية والفكرية والعلمية... وبعد مدة، سيحقق حصول "جبة ثانية" فيه. هذه الجبة تلفت الأنظار إلى نفسها من البواطن في كل صفحات حياته: معتقداته وعباداته، وأخلاقه وعلاقاته الاجتماعية، وارتباطه بربه وسلوكياته. والحقيقة أن الإنسان يرسم حدود عالمه الحقيقي الذاتي بمقدار ما ينمي هذه الموهبة الأولى الموجهة.

وإن هذا الذي توجه وطمح إلى ذرى الحياة القلبية والروحية هو على بصيرة من أمره؛ لذا فهو يعرف كيف يفكر ويتحرك ويعمل،



نعم، ينبغي أن نبذل قصارى جهدنا لالتزام بمصادرنا الذاتية أبدأ، وأن نخصر الذهن في بلوغ البحر بمحرانا الذاتي، ونحرص على التطلع إلى الوجود من تحت قبة سائنا، وقراءته ككتاب، وتفسيره إذ نقرؤه، واستنباط أفكار جديدة منه.

ومعلوم أن الإسلام مفتوح على اقتباس ما يمكن اقتباسه من قيم الأمم الأخرى؛ فالإسلام يبحث عن كل فائدة ومصلحة حين وإن كانت في أقصى بقاع الأرض، ويطلبها أتى يجدها. وكما اقتبس في الماضي من علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك

والهندسة والطب والزراعة والصناعة

والتقنيات الأخرى أينما وجدها، ثم قَوَّمَهَا وَطَوَّرَهَا وَأَوْدَعَهَا أَمَانَةً

للأجيال الآتية، فالיום أيضاً يأخذ كل ما يمكن أخذه أينما وجد،

وينميه ويطوره -إن استطاع- ويودعه أمانة للوارثين الجدد.

وكون الإنسان خليفة الله في الأرض يستوجب على المسلم أن

يكون عاشقاً للحقيقة وحريصاً على العلم والتحري وشغوفاً بالبحث.

لكن ينبغي أن يتقي المؤمن ويحذر من الاتكاء على المصادر الأخرى في الأمور المتعلقة

بالنظم العقديّة والفكرية، والموضوعات المرتبطة بالكتاب والسنة

وبكل ما يتعلق بالرسول ﷺ وسيرته، وطرائق التحليل والبحث في السيرة وتاريخ الإسلام، والفن والأدب ونحوها... ذلك، لأن

الذين أقاموا بنياهم الفكري على معاداة الإسلام، والناظرين إلى الإسلام وكأنه خارج الوحي السماوي، لا يرجى منهم

التصرف بحسن النية وطلب الخير للمسلمين ونهْي التقدّم لهم. أما العلم والتكنولوجيا -وهما خارج إطار ما ذكرناه- فقد

عهدناهما في أخذ وعطاء بين الأمم في الماضي، وستستمر المبادلة فيها مستقبلاً، وتنقل أمانة ووديعة في أيدي حائزيها. فالعلوم

والتكنولوجيا ليست حكرًا لدين أو أمة. لذلك، تستطيع كل أمة سليمة المشاعر والفكر والمعتقدات، ومنتصبة على ساقها بثبات

ورسوخ، أن تعتمد هذه العلوم الصرفة وتقطرها في روحها،

ومن أين يبدأ... فهو حساس في العبادات، ولديه استشعار عظيم بالأخلاق، وهو منفتح على المراقبة ومحاسبة النفس، ومنهمك في الشعور بالرببة من الذنوب في مراقبة دائمة.

فمن استقر وتوطد شعوره وتفكيره بهذا القدر، فستكون الحياة بكل وحدتها بالنسبة له كأنها شلال وجدّ مجراه، ينحدر موارأً أبداً ليبلغ البحر، وهو في هذا الشلال يعيش نشوة العشق والوصال أبداً. الإيمان -مقدار توسعه وعمقه- مولّد الطاقة (الدّينامو) الأساس لإنسان الحركة هذا، والعبادة سنده

ومحرّكه الحافظ، والأخلاق ومجموع العلاقات الإنسانية علامته الفارقة

وفصله المميّز. والثقافة غدت سحبة من سحابها. والفن بدا انعكاساً

لاستطلاعها وتفحصه وحدهه الداخلي ومشاهداته الباطنة.

وأستطرد لأذكر موضوعاً ليس مكانه هنا... لكن أقول عن الفن

الإسلامي إنه يحتوي رحاباً واسعة خصوصيةً بـ"تنوع في فلك التجريد". فهو إذ يؤكد على

التوحيد، يتخذ موقفاً ببناءً ضد التشبيه والتجسيم... وبمكسبة إبقاء

باب التأويل مفتوحاً أبداً، يريد أن

يرى بحراً في قطرة، ويصور شمساً في ذرة، ويشرح كتاباً في

كلمة واحدة. أما الثقافة الإسلامية المتشكلة بتأثير هذا الدين

الرئيس وهذه المقومات الأساسية -ولا نبيش الآن عن مقولة أن الثقافة ميرات الإنسانية عموماً- فهي مفتوحة على كل الأنشطة

الفكرية والذهنية المرتبطة بواقع الإنسان، وخالصة وعصارة للخلاصة المشتركة لتلك الأنشطة. ونحن نستشعرها بكل شيء

يخصنا بأمننا ويومنا، وبكامل حيويته، فنعيشه، ونطوره، ثم نودعه أمانة لدى الوجدان الاجتماعي، العارف المتأهل لما يُعَلَّر ويوقَّر.

لذلك، فإن الواجب علينا اليوم هو أن نكافح من أجل الحفاظ على ذاتيتنا بالارتباط بمنظومتنا العقديّة والفكرية والتوجه

نحو ثقافتنا وتناجها... وأن نقوم بتحقيق ألوان جديدة من الفكر والعرفان -إذا اقتضى الأمر- فوق أطلسنا الفكري.



وحدة من وحداتها بصورة أشد إحكاماً من أحكم شيء واقعي. ولم يكن الإسلام "أيدولوجية مثالية" بمعناها المعروف في الغرب، وعمل عليه أن يكون؛ لأن هذا المعنى كان شمساً خيالية برزت في السهوب المجهولة خلف جبل "قاف"... شمس لا يعكس شعاعها قط في واقع دنيانا العيش، ولا يمكنها الظهور حين في أصغر وحدات الحياة. فهي بأضوائها الكاذبة تصطلم بالخيال وتتكسر عليه كمثلثة غير واقعية، وترتو إلى الحياة وحقائق الحياة الواقعية، من أفق بعيد كنوع من أنواع الأحلام اللذيذة(١) - ووصفها باللذبة يعود لمن يتأولها-.

أما الإسلام، فقد وعد -وبعد- البشرية بنظام فريد في نوعه، قابل للتنفيذ في كل مجال، مالمثل لوسائل تحقيقه بديلة في التنفيذ. فيجسد فيه الذين يلبون نداءه نشوة وتلؤف وأداء نظام قد غم في رحم واحدة متوافقة مع طباعهم وجبلتهم. فهو بسعة العناية بكل شيء، ابتداءً من القبول المسبق في الوجدان إلى المسائل الأخلاقية في الحجرات النهائية للحياة، ومن أدق المسائل الفردية والعائلية إلى أعظم المعضلات الاجتماعية، يقدم حلولاً فريدة، ولا يجيب رجاء المنتسب إليه مهما كان ضيق الصدر أو قصير الشأو. الإسلام يبدأ بالعمل في الوجدان الفردي، وإذ يستقر فيه، يطفح منه بفائتيه الخاصة الذاتية، ويُفيض من محيطه وبيئته، ويجعل كل مكان حقلاً فسائلاً، فيصطبغ كل مكان بصبغة روحه، ويدل أينما انتشرت جذوره لون الحياة وأدائها، ويُسَمع القلوب نداء الوجود الأبدى، وقد كان -ولا يزال- كل نداء منه ترغماً للسلام العالمي، وتناغماً للانسجام الاجتماعي، ونقساً للتسامح والحوار. أما الصبح والوحشية والصلف والحدق والبغض، فهي من الغثيان المنعكس من البناء الروحي خصوصه في الخارج، وعسر هضم جهلة المنتسبين إليه. لكن هذا النور انكشف حيناً بمائل من أحد خصوصه، وانخسف أحياناً بتفريق الفريقين معاً الظلمات فركة. ولو فتر العدو قليلاً في الجفاء، وبدل الخليل قليلاً من الوفاء، لكان الإسلام قد بما وكس أنشوع الظلمات من الأرض مثل البغض والغضب، بفوران "عن المركز" كالأركان أو بحزم الضياء من أطراف النور، ولجعل الأرض حناناً مطمئناً تمتد حافاتها حتى تصل الجنة... ففي طله يُنسى العراك والجريمة والإرهاب والاضطراب، وتُمنى نسيان الحب والتوقير والانسجام والحبور في كل الأرجاء. وإن القلب الذي يتوطد فيه الإسلام، يمتلئ

فتجعلها صوت قلبها ونفسه، ووسيلةً توصل البشر إلى الله تعالى. والمؤلم أن فلسفة العلم في أوروبا -وعلى نقض المرونة في عالمنا الفكري- قد أوقعت الغرب كله في صراع دائم بين العلم والدين لأمر وأوضاع خصوصية، فخلّف ذلك انفصلاً بين العقل والقلب. هذا المشكل هو السبب الرئيس للمعضلات المتتابة منذ عصور في النظم الغربية كلها. بل لقد تفاقمت الأزمة من مخاصمة جهة العلم والفلسفة للدوغماتيات الكنسية، إلى مخاصمة "المفاهيم" الدينية كافة مرور الزمان... فكأن العلم والفلسفة حامية ومدافعة عن الإلحاد. وقد أصاب -للأسف الشديد- الفكر الإسلامي البريء شيء من هذا العداء ضد الدين، إذ عُرض إلى أشنع ظلم وأبشع عن، ووضع في قصص الاتهام مع الكنيسة التي هي المعنية في الأصل بهذه الخصومة.

انقلبت هذه الحركة المعادية للدوغماتيات الكنسية، والقائمة أصلاً على حرية الفكر والعلم، إلى معاداة الله والدين والدين... ثم إلى تحمس في أرجاء العالم كله لإسكات المتدينين وإحباطهم وتضييق الحناق عليهم، بل لإزالتهم من الوجود تماماً. ولم يكن للعالم الإسلامي مشكلة البتة مع العلم أو حرية الفكر، ولكن زمرأ من أعداء الدين تفاضوا عن هذه الحقيقة الفارقة، واتخذوه غرضاً لمراميمهم العدائية الدينية مقاييسن له على المسيحية الكنسية... والخال أن الإسلام كان -و لم يزال- يقدم للإنسانية جمعاء نظاماً للحياة جديداً وفريداً... نظاماً لا نظير له في الماضي، ويبدو رمزا للمثالية والتفرد في الآتي. فهو قد نظم وينظم بأسسه حياةً جديدة لنوع البشر، ويضع تفسيراً جديداً لعوالم الدنيا وما بعد الدنيا، والعالم المادي وما وراءه، ويرتب -من جديد- الوشاح بين الإنسان والكائنات والباري... يرتبها من وجهة خصوصيات الظواهر وبشكل مميز وفريد، ويقطع دابر النقائص في "الإلهيات"، وتستجيب القيم التي أوجدها بإشباع كامل ومُطْمَئِن لكل متطلبات البشرية حول الموت والحياة، ويسد كل الثغرات العقلية والمنطقية والفكرية والحسية في قلوب المخاطبين وعقولهم. كان الإسلام -وما يزال- حيويًا وحرًا من كل وجهة... يتوسع وينبسط في واقع الحياة، ولم يرحل النظر إلى أي مشكلة وأجهته، يدخل إلى أضيق المعابر في الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ويجول في وحدات الحياة كلها بصوت العصر الذي هو فيه، ويلفت النظر في كل



بالحب والاهتمام والتسامح إزاء المخلوقات من أجل الخالق، والمصنوعات من أجل الصانع.

نعم، لن يجتمع في القلب إيمان وارتباط بالله مع الخلد والكره والغضب. ولا يُحتمل مطلقاً أن يبقى بابُ القلب مفتوحاً لتلقي العداوات خصوصاً مع الحفاظ على جلاء روحه ورواقه بتجديد إيمانه وانتسابه للحق تعالى وميثاقه؛ كل يوم وأُسبوع وعام، بأنواع العبادات. فإن كل تصرفاتنا الإسلامية تُحفر فيها شعور التحرك المسلم، وتقودنا إلى الحياة الإيمانية. ويتواتر

انعكاس مكتسباتنا الوجدانية ووارداتنا القلبية على سلوكياتنا، تتكون خيوط أخلاقنا وتتلون بألوان الألوان. وبدوام تدفقها من تصرفاتنا تتكون مرجعات ثقافتنا، فتؤمن لنا البقاء بذاتنا وشخصيتنا. وهكذا التكامل الإنساني المتوطد بالله والإيمان والاعتماد والاطمئنان في قلب الإنسان، يطفح إلى المحيط والبيئة حياً واهتماماً وإخلاصاً ووداً، فيخرج الفرد المسلم من الفردية بفضل هذه الجاذبية القدسية التي يميزها، فيكاد يكون أمة.

إن الهمم الفكرية والتخطيطية والفنية تُؤدَّب ابتداءً في ذات الإنسان، ثم تتشكل صورها، ثم تتوسع وتنسبط إذا وجدت المناخ اللائم للنمو والتطور. فكذلك أيضاً العبادات والأخلاق والحياة الروحية والثقافة والعلاقات البشرية الأخرى كافة... تُستشعر بها بداية في عمق الإنسان إيماناً وإذعاناً، ثم تنمو لتحيط بالحياة كلاً، وتسربل بصبغتها التصرفات البشرية كافة، فتكون مُعَيَّناً ومُوجَّهاً أساسياً لكل همه وحملته وحركة وفعالية، حاضراً بنفسه وبوجوده في كل الأحوال. يتميز الإسلام عن النظم الدينية والفلسفية الأخرى قاطبة، بأنه رسم للإنسانية صورة فكرية وحياتية ذات بُعد عالمي، لكن بسيماء خاصة به في الوقت عينه... وحمل المتسبين إليه مسؤولية أن يجعلوه حياة يُحيوها وأمرًا ينفذونه. ولذلك يسعى كل مسلم يعرف هذه الحقيقة لكي يتصرف ضمن إطارها في أعماله وعلاقاته الفردية والعائلية والاجتماعية، ويخطط لمستقبله وفقاً لهذا الفهم،

ويستجمع همته ما استطاع وسنحت له الأحوال للإيفاء بحق هذه المسؤولية. ولا يخفى أن الأفكار والغايات المأمولة تبقى أحلاماً وردية ورفرافة، ما لم تؤيَّد بمحركات وأفعال حركية لوضعها موضع التنفيذ بقدر ما تتسع الأحوال... فإن قصّرنا، فسوف تستمر كمشاة الواقع الفعلي تسحقنا بين فكيفها.

ومن الحق أن حقيقة الإيمان المتأصلة في عالمنا الداخلي، إنما تديم وجودها بقدر تناميها وتوسّعها في الحياة الواقعية... فإذا بُدِرَت بنور الإيمان وترعرعت واحضرت في القلوب، ثم تحولت إلى استقامة ووثوق في التصرفات، وانقلبت إلى وقار وحشوع في الصلاة، ورفدت وإزاع الحفانية والعدل في علاقاتنا الاجتماعية، فلذلك يعني أن الأفق منبسط أمامه إلى اللامتناهية للنظور والتوسع. وكما يكون إيماناً كهذا الإيمان في الإنسان مصدراً لا ينفد للقسوة والحيوية، كذلك يكون قاعدة ومنصة للارتقاء به باسم "خلافة الله في الأرض" إلى حق "التدخل في الأشياء"، وتشكيل صور البيئة المحيطة حسب مشاعره وأفكاره، والانفتاح على اللامهاية في

**الإسلام يربط أحكامه وأوامره
بمعطيات الحياة المعيشة وبإمكانية
التطبيق، ولا يبيّن الأحكام في دنيا
الأحلام. الإسلام متواجد وحركي في
الحياة بكل مساحاتها، من المعتقدات
إلى أنشطة الفن والثقافة.**

محور التوحيد والتجريد بالملاحظات الجمالية والروح الفنية في طبيعتهما الذاتية. ذلك لأن الإيمان يورج روحاً فنية ممكنة في الأرواح المفتوحة على الجمال يدعو إلى العجب والانبهار. نعم، إن الفنان المؤمن يصل إلى الماهية المجردة في منشور الوجود اللامهاية، ويرسم ألوان الأبدية، برفوش وخطوط عديدة على اللوحة بضربة فرشاة من غير تعب أو رهق... حتى إن الناظر ينسحب بنفسه أمام أثودج نقش مصغر للوجود في كل تأمل في اللوحة الفنية، فتأخذ نشوة مطالعة اللامهاية في المعطيات المحلودة، والبحر في القطرة، والكائنات في الذرة، في عالم الخطوط السحري، ضمن تصور ملاحظات التوحيد والتجريد بلسان الفن.

ونحن لا نريد أن نفهم الفن الإسلامي بمحصرة في رفض موضوعات ذاتية أو موضوعية، أو إعلاناً وإبرازاً للمهارات... بل تأليفاً -من جهة- بين الروح والمعنى والمحتوى فيما يشاهد من علائق الوجود والحوادث فيُستشعر، وما يتحسس منها فيفهم أو



حراء

مجلة علمية ثقافية فضائية
www.hiimagazine.com

من أجلك كان قد نزل!

فيما مضى...

كان القرآن نبض وجدانك،

وإيقاع كلماته خفق قُؤادك،

فحملته، وكلامه إلى العالم أخذته،

أما اليوم، فيسيف الجفاء جندلوك،

فانفطر عقدك، وتشتت عمرك...



ما يُتَحَسَّس وينبغي أن يُفْهَم، وبين لسان القلب والشعور والחס
-من جهة أخرى... فيتمكن -من ثم- أن يرشد على الدوام
إلى الموجود الذي ليس كمثلته شيء، بالإيماء والإيماء من مختلف
المستويات والترتيبات -ولكن بلا حيد عن خط مستقيم واحد
تشير إليه بوصلة القبلة-، وفي مرونة تشعر بالحقيقة الواحدة النابتة
المطلوب فهمها -ولكن ببعد جديد مختلف في كل نظرة وتطلع-
، فيشهر الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة بخطوط سحرية
في هذا الإطار أو فيما يتجاوز هذا الإطار.

الحاصل أن الإسلام صوت كتاب الكائنات ونفسه وتفسيره
وإيضاحه، كذلك هو رسم ماضي الكائنات وحاضرها
ومستقبلها، وصورتها وخارطتها، ومفتاح سرّي لأبوابها التي قد
تظن أنها مغلقة. الإسلام "كل" يعبر عن هذه الأمور والشؤون
جميعاً. "كل" يستحيل تحزّؤه، ويستحيل أن يُحمّل جزؤه القيم
المحمّلة على الكل. فإن تجزئته إلى أجزاء، ثم محاولة استنباط فهم
كامل وتام من الأجزاء، غلطٌ وخطأ وإهانة لروحه. وسوف
يقى من يريد أن يفهمه أو يحصره في تفسير آيات وأحاديث
معدودة بأسلوب وعظي، مهزوز الوجدان بأحاسيس نقص
حقيقي، ومعاني من خواء روحي دائم؛ مهما كدّ وسعى لسماع
بمجموعة الأنعام الرائعة هذه.

الإسلام إيمان، وعبادة، وأخلاق، ونظام يرفع القيم الإنسانية
إلى الأعلى، وفكر، وعلم، وفن. وهو يتناول الحياة كلاً متكاملًا،
يفسرها، ويقوّمها بقيمه، ويقدم لمتسيه مائدة سماوية من غير
نقص. وهو يفسر أداء الحياة دومًا متمزجًا مع الواقع، ولا ينادي
ألبنة بأحكامه في وديان الخيال بمعزل عن الحياة. يربط أحكامه
وأوامره بمعطيات الحياة المعيشة وإمكانية التطبيق، ولا يبني
الأحكام في دنيا الأحلام. الإسلام متواجد وحركي في الحياة
بكل مساحاتها، من المعتقدات إلى أنشطة الفن والثقافة... وذلك
هو أهم الأمارات والأسس لحيويته وعالميته الأبدية. ■

(١) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.



أ.د. محمد عمارة *



الإسلام
دين الجماعة.
أي الأمة، تلك

الفرد والطبقة والأمة

خصيصة من خصائص المنهج الإسلامي.

وكون الأمة هي الجماعة الأساسية - في المنظور

الإسلامي - لا يعني الإجحاف بحقوق "الفرد"، ولا الإنكار لوجود "الطبقة" - بالمعنى الاجتماعي - في إطار "الأمة"، وإنما هي العلاقات التي أقامتها الوسطية الإسلامية الجامعة بين "الفرد" و"الطبقة" و"الأمة" على نحو متميز وفريد.

فالمسؤولية في الإسلام في الكثير من التكليف، وفي الحساب والجزاء عليها مسؤولية فردية، نقل الإسلام بها هذا الفرد من وضع الذويان الكامل في إطار القبيلة والعشيرة، لكن هذا الإنسان الفرد هو مدني بالبيئة، اجتماعي بالطبع، يستحيل عليه أن يحيا فردا وفي حدود النزعة الفردية.

نسق التكليف الدينية

والتكليف في الإسلام منها الفردي (فروض العين) ومنها الاجتماعي (فروض الكفاية)، وهي جميعا ينتظمها نسق واحد،

هو نسق التكليف الدينية، والرباط بينها عضوي، حتى

ليستحيل على الفرد - بسبب من مدنيته واجتماعيته - أن ينهض بتكليفه

الفردية (فروض العين) إذا أصاب الخلل النظام

الاجتماعي بتخلف الفروض الاجتماعية. فإذا انعدم الأمن في المجتمع أو عرّ فيه القوت، فأنتى للعايد أن يعبد الله ويؤدي فرائضه العينية؟! لقد قال الفقهاء: إن صلاة الخائف والجائع لا تصلح؛ لأن الحضور فيها - وهو شرط إقامتها - لا يتأتى إلا بالأمن الاجتماعي وتوافر الأقوات. ولقد أصاب الإمام الغزالي عندما حدد الضرورات الاجتماعية التي يستحيل بدون توافرها إقامة الدين، فقال: "إن

نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا؛ فنظام الدين بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والسكن والأقوات والأمن. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق هذه المهمات الضرورية. إن نظام الدنيا شرط

لنظام الدين...".^(١) ولذلك كانت فروض الكفاية (الاجتماعية) في المنهج الإسلامي أكد من فروض العين (الفردية)، للارتباط



العنصري بينهما في النسق التكليفي الواحد، ولترتب التمكن من أداء كثير من فروض العين على تحقيق كثير من فروض الكفاية.

مر كزية دور الفرد

لكن تحقيق الفروض الاجتماعية لا يعني عن ضرورة الفروض العينية؛ لأن مكانة الأمة والجماعة في التصور الإسلامي لا تلغي دور الفرد ومكانته، فالمسؤولية والتكليف والحساب والجزاء فردي، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الإسراء: ١٥) في التكليف الفردية، لكن البلوى الاجتماعية إذا عمت طالت من لا يد له فيها. ولذلك دعانا الله إلى اتقاء الفتنة التي لا تصيب الذين ظلّموا دون سواهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥). إن النهوض بالمسؤوليات والتكليف الفردية هو السبيل إلى إقامة التكليف الاجتماعية.. كما أن إقامة التكليف الاجتماعية هو السبيل إلى النهوض بالتكليف الاجتماعية.. وهذا الترابط السدي بهي للفرد الوفاء بحقوق تكليفه العينية. وهذا الترابط بينهما هو التعبير عن ارتباط الفرد بالأمة في منهج الإسلام.

الفرد لبنة كيان الأمة

وفي ضوء هذه الحقيقة نقرأ صياغتها عند الماوردي عندما يقول: "واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين: أولهما: ما ينظم به أمور مجتمعتها، والثاني: ما يصلح به حال كل واحد من أهلها. فهما شيئا لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه؛ لأن من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها، لن يعلم أن يتعدى إليه فسادها ويقدر فيه اختلالها؛ لأنه منها يستمد ولها يستعد. ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها نلّة ولا لاستقامتها أثرا؛ لأن الإنسان دنيا نفسه، فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه؛ لأن نفسه أخص وحاله أخص، فصار نظره إلى ما يخصه مصروفا، وفكره على ما يحسه موقوفا." (٣)

فالفرد هو نقطة البدء، وهو بواسطة الأسرة والعشيرة يعد لبنة في كيان الأمة، ولا مكان للفردية المغالية في المنهج الإسلامي؛ لأن صلاح اللبنة موقوف على كونها جزءاً من البناء الكبير.

الأمة في التصور الإسلامي

والأمة في التصور الإسلامي ليست مجرد جمع "كمي" يساوي عدد الأفراد فيها، وإنما هي كيان جامع، له حالة (كيفية) جديدة تفوق كميّات وقدرات أفرادها متفرقين. إنها كيان متميز، له ما ليس للأفراد المتناثرين. إن الخيط الممتدة ليست لها القوة المتحصلة منها ذاتها إذا هي اجتمعت. وفطرات الماء المتفرقة لا

تحدث الري الذي تحدثه عند الاجتماع. والأفراد المتفرقون ليست لهم حصافة الرأي ورجاحة العقل وكياسة النظر التي تتأتى لهم بشورى الاجتماع. ولذلك لم يمنع جواز الضلال على كل فرد من أفراد الأمة، أن تكون لهذه الأمة العصمة عند الاجتماع والإجماع. ويشهد على هذه الحقيقة الموضوعية حديث رسول الله ﷺ: "إن الله وعدني في أمي وأجارهم من ثلاث: لا يجمعهم بسنة، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة" (رواه الدارمي). فالأمة في الإسلام مقام فريد، يعلو بها عن مجرد الجمع العددي والتراكم "الكمي" لما لدى أفرادها وآحادها. ولقد أبصر الماوردي وهو يتحدث عن مذاهب الأمم في "الشورى" كيف أن الحضارات التي مالت كفتها لحساب "الفرد" قد حذبت "الشورى الفردية"، بينما حذبت الحضارات التي مالت كفتها لحساب المجموع "شورى الاجتماع". ثم أضاف الجديد الذي غمّزت به حضارة الإسلام وشوره، عندما جمعت بين الاثنين (الفرد والمجموع) فقال: إن مذهب الإسلام في "الشورى" هو الجمع بين "شورى الفرد" و"شورى الاجتماع"، فحيث تكون القضايا مما تحتاج إلى الاجتهاد وإعمال الفكر واستنباط الأدلة تكون شورى الانفراد؛ لأنها شورى الاجتهاد. وحيث يكون المراد هو الكشف عن ثمرات الاجتهاد الفردي، فإن الاجتماع والمواجهة (شورى الاجتماع) تكون هي السبيل القويم. (٤) فلارتباط بين الفرد والمجموع كان جمع الشورى الإسلامية بين نمطي شوراها جميعا.

التمايز الطبقي

وكما أن دار الإسلام تتألف من أوطان وأقاليم يجمعها جامع الإسلام: العقيدة والشرعية والحضارة؛ كذلك أمة الإسلام تتألف من الشعوب والقبائل التي تعارفت بالإسلام وعليه، فعدت أمة الإسلام التي لا تُزقّ وحداثتها التمايزات القومية والعرقية والبيئية؛ لأنها تمايزات الواقع الذي لا يناقضه الإسلام، وإنما يهذبه فينظمه في نسق العقيدة الواحدة والحضارة الواحدة.

وإذا كانت مكانة الفرد في المنهج الإسلامي قد شهدت بتميزها المسؤولية الفردية، والتكليف الفردية.. وإذا كان القرآن الكريم قد أبرز مكانة الأمة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ (الأنبياء: ٩٢)؛ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)؛ ﴿وَكُنْتُمْ أَكْثَرُ أُمَّةٍ وَاسْطًا﴾ (البقرة: ١٢٩). فإن المنهج الإسلامي لا ينكر وجود "الطبقة" ولا التمايز الطبقي في إطار الأمة وفي داخلها؛ فالفاوتات الاجتماعي - بنظر الإسلام - حقيقة من حقائق الواقع، نابعة من تفاوت الخواطر والقدرات

والجهد المبذول والذكاء الذي يستخرج الثمرات.. والإسلام لا يقفز على حقائق الواقع ولا يتجاهلها ولا يعادها، ولكنه يهذبها ويضبطها كي تظل في إطار "المشروع" ونطاق "العدل" الذي لا يعني المساواة التامة وإنما يعني "التوازن" بين فرقاء متفاوتتين.. التوازن (الوسط) العدل، الذي ينكر الظلم ويقترّب بالتفاوت إلى حيث درجة التوازن وحلطة العدل، التي يكون فيها التفاوت مؤسسا على ما هو ضروري ومشروع وطبيعي من العوامل والأسباب. ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَنَمَةٍ أَفْلَحُوا﴾ (نحل: ٧١). فإذا تأسس التفاوت والتميز الاجتماعي والاقتصادي على ما هو مشروع من الأسباب، وإذا أحدث هذا التفاوت تمايز الأمة إلى طبقات اجتماعية متميزة، فإن الإسلام لا يرى في وجود الطبقات إخلالا بالأمة، ولكنه كما أقام علاقات الترابط بين الفرد وبين الأمة، كذلك يهذب من حدود التمايز والتفاوت الطبقي ويضبط جوهره ويرسم آفاقه، على النحو الذي يجعل علاقات الطبقات الاجتماعية في حلطة التوازن ودرجته ومستواه؛ لأن هذا التوازن الذي يجمع بروابط التساند الطبقات المتعددة هو العدل الوسط في منهج الإسلام.

أما إذا احتل هذا التوازن الاجتماعي بين الطبقات في أمة الإسلام، فإن الخيوط الجامعة بين الطبقات تتحلل مكانها لعوامل التناقض والصراع بين هذه الطبقات. وتلك هي الأخرى حقيقة موضوعية، وواقع اجتماعي، لا ينكره المنهج الإسلامي ولا يستنكره ولا يتجاهله ولا يقفز عليه. لكنه يضع أيضا هذا الصراع الضوابط، ويحدد له الغايات والآفاق؛ فالهدف منه هو العودة بالعلاقات الطبقة إلى درجة التوازن وحلطة العدل الوسط. وليس الهدف منه أن ينفي قطب القطب الآخر تماما، وأن تلغي طبقة الطبقة النقيض كلية وتقتلعهما من الوجود؛ فهذا المفهوم للصراع الطبقي هو خصيصة غريبة، لأن لهم مفهومهم الخاص لآفاق حرية الطبقة في التمايز والامتياز.. وهي آفاق قد لا تعرف الحدود. فالبرجوازية سعت إلى نفي الإقطاع، والبروليتاريا سعت وتسعى إلى نفي البرجوازية. وما حديث "الشمولية-الشيوعية" عن المجتمع اللاتبقي إلا حديث عن المجتمع الذي تنفرد فيه طبقة واحدة بسلطات الفكر والحكم والمال.. لكنهم يكتشفون أن التمايز الطبقي الطبيعي حقيقة موضوعية من حقائق التوازن الاجتماعي (أي العدل الاجتماعي) وضرورة من ضروراته.

فما ظنوه اقتلعا للبرجوازية، لم يكن أكثر من استبدال الطرف الذي يتمتع بامتيازاتها؛ فبدلا من الملاك الرأسماليين حل "الحرب"

و"التكويرا" (أي الدولة) التي امتلكت سلطات الفكر والحكم والمال بدلا من ملاكها السابقين. تغيرت الأسماء، ولم تلغ الطبقة في المجتمع الذي ظنوه لا طبقيًا، حتى ليتحدثون عن حاجة مجتمعهم هذا إلى ثورة لإزالة ما به من تناقضات.

الإسلام لا يتجاهل الواقع

لكن الإسلام الذي لا يقفز على الواقع ولا يتجاهل حقائقه -ومنها التمايز الطبقي النابع من التفاوت الاجتماعي الطبيعي- يجاهد لإبقاء هذا التفاوت في حدود الأسباب المشروعة، ويعمل على أن لا تتجاوز آفاقه حلطة التوازن، التي هي درجة العدل (الوسط).. فإذا تجاوز هذه الآفاق واحتل التوازن وحل الظلم الاجتماعي محل العدل الاجتماعي، فلا حرج في الإسلام أن يشهد المجتمع دفعا طبقيًا، بل لقد رآه الإسلام سنة من سنن الله في المجتمعات، تقود الظاهرة الاجتماعية من درجة الحل والحلطة الظلم إلى درجة التوازن وحلطة العدل بين الطبقات؛ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١)، "ومن أريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد" (رواه الرمزي). فهذا الدفع الاجتماعي الذي هو سنة من سنن الله في المجتمعات هو أداة العودة بالعلاقات -إذا هي خرجت من دائرة التمايز المشروع والطبيعي في الرابطة الجامعة إلى دائرة التناقضات العدائية والمزقة لجامع الأمة وتضامنها- هو أداة العودة بالعلاقات الطبقة من إطار الحل والظلم إلى إطار التوازن والعدل؛ لتظل الأمة هي الجامعة، حاملة رسالة الإسلام: العقيدة والشرعة والحضارة. وليست الطبقة هي حاملة الرسالة الرجوازية -ورسالتها "الليبرالية-الرأسمالية"، والبروليتاريا -ورسالتها "الشمولية-الشيوعية".

علاقة الطبقة بالأمة

ثم إن هذا الموقف المتميز للمنهج الإسلامي من علاقة الطبقة بـ"الأمة"، هو الآخر مؤسس على مفهوم متميز لمعنى "الطبقة" في منهج الإسلام؛ فإذا كانت "الطبقة" هي الشريحة المتميزة اجتماعيا في إطار الشعب أو الأمة، وإذا كان هذا التعريف لها هو مما يمكن الاتفاق عليه في مختلف المذاهب والحضارات، فإن خلاف المنهج الإسلامي مع المذاهب الغربية يأتي في العامل والميار الذي يميز هذه الشريحة فيجعلها طبقة اجتماعية متميزة عن غيرها من الطبقات. ففي الحضارة الغربية نجد أن الوضع المادي (الاقتصادي) هو الأساس الأول والميار الأعظم في تمييز الطبقة اجتماعيا. وما نوع العمل في ذلك المنهج إلا سبيل لتحديد مستوى هذا الوضع المادي والاقتصادي.. أما في المنهج الإسلامي فإن معايير تمايز الطبقات



جنود الله، ومنها: كُتَاب العامة والخاصة، ومنها: قضاة العدل، ومنها: عمال الإنصاف والرفق، ومنها: أهل الجرية والخراج من أهل الزمة ومسلمة الناس، ومنها: التجار وأهل الصناعات. ومنها: الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة (أي العاجزون عن الكسب والتحصيل).. فالجنود حصون الرعية، وسبل الأمن. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب. ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات" (٣).

فالمطلوب لتحقيق العدل ليس الصراع الذي تنفي فيه طبقة بقبية الطبقات، بزعم أن العدل مرهون بالمجتمع اللاطقي. وإنما العدل المطلوب سبيله إقامة التوازن بين الطبقات التي تعد وظائفها ضرورات اجتماعية تحقق للمجتمع ثمرات من الكسب المادي والفكري، والكسب الحافظ على المجتمع قدرته وحرته ومنعته. لأن هذه الطبقات - كما يقول الإمام علي - "لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض".

ولعل هذا التساند الطبقي، والاتفاق الذي لا غنى عنه بين الطبقات، لعله أن يكون التفسير الأدق لقول الله ﷻ: ﴿تَحْنُ قَسَمًا يَنْهَكُ مَعِي شَهْمُهُمْ فِي الْخِيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعَنَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّبِعَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُورَتِي وَرَحْمَةً وَكَرْهًا مِمَّا يَتَجُمَّرُونَ﴾ (سورف: ٣٢). فالتمايز والتفاوت الطبقي والمخيد بأنه درجات، هدفه - وهذا هو المعنى المناسب لـ ﴿سُورَتِي﴾ - هو التساند والاتفاق، وأن تكون كل طبقة هي للأخرى مرفق وسند وعماد. وليس المراد سخرة الاستعباد والإذلال التي هي عين الظلم الذي تَسْرَهُ الله عن فعله وعن إرادته للناس. فالطبيعة وظواهرها وقواها قد سخرها الله للإنسان يرتفع بها ويستعين على عمارة الأرض وتربيتها. وكذلك التمايز الطبقي ضرورة للتساند والاتفاق، عندما تكون العلاقات الطبقية في لحظة التوازن ودرجة العدل، لتكون الأمة بأدائها الاجتماعي كالفريق وكالجسد الواحد، الذي وإن تكن من أعضاء متميزة إلا أن العلاقات والروابط الصحيحة بين أعضائه المتعددة تُحقق له - بتنمية الحوافز وإثارة الحمم - أداءً من حدا لجسد واحد، حتى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

ولأن هذه هي "فلسفة الإسلام الاجتماعية" وجدنا القرآن الكريم يجعل "المال" - قال الله ﷻ في ذات الوقت الذي يجعله مال الناس بحكم خلافهم فيه عن الله، فلقد قال خالقه وواهبه لخلائه فيه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد: ٧). فجعل ملكية الرقبة الملكية الحقيقية له سبحانه، وجعل للإنسان

متعددة ومتنوعة، ولا تقف عند العامل المادي وحده. فروع العمل ووظيفته في المجتمع ومكانته في الهيئة الاجتماعية يثمر تميز الطبقة اجتماعياً حتى مع غيبة التمايز المادي والاقتصادي داخلها، لأن شرف العمل أو وضعه، وخطره أو ثوابته، ثمر وابطا يصنع ويميز الطبقة اجتماعياً عن غيرها من الطبقات، وابن الفلاح الذي ينفلت من طبقة الفلاحين مهنيًا طبيباً أو مهندساً أو عالماً أو رجل دولة أو قائداً عسكرياً، إنما يدخل في طبقة اجتماعية جديدة تميزه اجتماعياً، حتى ولو لم يتجاوز مادياً المستوى الاقتصادي الذي يوجد عليه أبوه الفلاح، وحتى مع بقاءه عضواً في أسرة فلاحية. فليس بالعامل المادي والاقتصادي وحده تمايز الطبقات. كما أن هذا التمايز، لأنه في إطار الجامعة الأعظم جامعة الأمة، لا يعرف الفواصل الحادة، على النحو الذي عرفته الحضارة الغربية في العلاقات ما بين الطبقات.

مفهوم العدل في الإسلام

هكذا أقام المنهج الإسلامي وقيم العلاقة بين الفرد والطبقة.. وبين الطبقات - في إطار الأمة - على النحو الذي يحقق فيه الكل ذاته ورسالته، وعندما يكون التوازن والعدل والوسط هو ميدان الاجتماع والالتقاء. فإذا احتل الأمر كان الدفع الاجتماعي والاجتهاد لإعادة العلاقات إلى صحتها، ونفي عوامل المرض وجرائمه منها، وليس لينفي طرف من الأطراف الطرف الآخر حالماً بالانفراد والاستغناء. إن الاجتماع والاشتراك (الأمة) والتأليف والتساند بين الفرقاء المتميزين هو العدل.. أما الانفراد - من الفرد أو من الطبقة في السلطة السياسية أو بسلطان المال - فهو عين الظلم وذات الطغيان. وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿كُلًّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ۚ إِنَّ زَاةَ أَعْيُنِي﴾ (المدثر: ٧).

إن هناك حداً أدنى للعدل لا بد أن يتوفر للفرد هو الإنصاف في القانون والحكم، والإنصاف في أمور المعاش. وفي كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه حول القضاء إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، يقول: "وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في الحكم والقسم". (٤). هنا هو الحد الأدنى من العدل للفرد الضعيف في منهج الإسلام. وفي العهد الذي كتبه الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإلى مصر (الأشتر النخعي) حديث عن التمايز الطبيعي والواقعي بين طبقات الأمة، وعن واجب الدولة الإسلامية حيال هذا الواقع الطبقي، وعن السبيل لإبقاء العلاقات في درجة التوازن ولحظة العدل. يقول الإمام علي رضي الله عنه: "واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها:



فيه ملكية المنفعة الملكية المجازية المحققة لمقاصد الاستخلاف في هذه الأموال، وذلك حتى يفتتح آليات -دائما وأبدا- أمام حركة الدفع الاجتماعي وأنصار العدل الاجتماعي كي يعيدوا أوضاع الامتلاك والاختصاص والحياسة في الأموال إلى درجة التوازن ولحظة العدل التي تنفي الخلل والظلم وتُحقق مقاصد الاستخلاف. فإذا غدا المال ﴿هُوَ ذُو تَيْنِ الْأَغْنِيَاءِ﴾ (الفرد: ٧) جاز -بل وجب- إعادة التوازن بين الفراق، بتأسيس التفاوت بينهم على المشروع من الأسباب والحلال من الثمرات.

وفي نطاق المستخلفين وجدنا القرآن الكريم يضيف مصطلح "المال" إلى ضمير "الجمع" في سبع وأربعين آية ﴿أَمْوَالُكُمْ﴾ و﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ وإلى ضمير الفرد في سبع آيات ﴿مَالَهُ﴾ و﴿مَالِيَهُ﴾، فلا ينفرد جانب دون الآخر بحق الاستخلاف.

ولعل في تأمل الآية الكريمة التي تشرع أنواع العلاقة بين المستخلف في المال وبين الله الذي استخلفه، ثم يبين وبين أصحاب الحقوق في هذا المال -وهي علاقة الوساطة والسبب بين الواهب وبين أصحاب الحقوق-.. لعل في تأمل الآية التي تشرع لذلك فنقول: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (البقرة: ٣٣) ما يجسد هذا المعنى الذي نلح على إبرازه. فالمال مال الله، وهو قد آتاه حائزاً ليوثي منه أصحاب الحقوق. فالخائز "واسطة"، والحياسة وظيفة اجتماعية واقتصادية لمصلحة المجموع.

ثم لنتأمل صنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الصحابي بلال بن الحارث رضي الله عنه، و"الإقطاع" الذي أقطعه إياه رسول الله ﷺ، لقد سأل بلال الرسول أن يقطعه أرضاً واسعة، فأقطعه له، وكان ذلك سبيلاً لإحياء الأرض الموات أو زراعة الأرض التي لا صاحب لها، ولكن بدلاً من حجز هذه الأرض دون أن يزرعها بحجة أنه صاحبها يفعل فيها ما يريد. لكن عمر رأى أن في ذلك إخلالاً بالتوازن والعدل الذي يجب أن يحكم علاقات الملكية والحياسة في الأموال كي لا تكون دولة بين الأغنياء، يجوزون أكثر مما يطيقون ويتناجون، بينما لا يجد الآخرون ما يحتاجون. فأراد عمر العودة بهذه العلاقة بين بلال والأرض من درجة الخلل إلى درجة التوازن والعدل، وذلك بأن تقتصر حيازته على ما يطيق زراعته، وأن يعطى الزائد لمن يحميه ويستثمره. ولما جادل بلال في ذلك قسره عليه عمر، بل وسنن قانوناً ينظم أمر هذه الإقطاعات، ويضمن إعادة العلاقة بالأموال -إذا هي احتلت- من درجة الظلم والخلل إلى درجة العدل والاتزان.

لنتأمل صنع عمر هذا من خلال كلمات الحوار الذي دار عنيفا بينه وبين بلال ابن الحارث رضي الله عنه، والذي بدأه عمر رضي الله عنه فقال لبلال:

إنك استقطعت رسول الله أرضاً طويلة عريضة، فقطعتها لك. وإن رسول الله ﷺ ما يكن يمنع شيئاً يسأله، وأنت لا تطبق ما في يده. -أجل.

- فانظر ما قويت عليه فأمسكه، وما لم تقدر عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين.

- لا.. لا أفعل، هذا شيء أقطعيه رسول الله. - إن رسول الله لم يقطعتك لتحجزه عن الناس، وإنما أقطعتك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته وُرد الباقي.

- لا أفعل.

- والله لتعفن.

وأخذ عمر من بلال ما عجز عن عمارته فقسمه بين الناس. ثم خطب الناس: "من أحميا أرضاً ميتة فهي له.. ومن عطل أرضاً ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له".^(١)

فنحن هنا أمام تطبيق خلاق لفلسفة الإسلام في استخلاف الناس في الأموال عن الله، وتخديد آفاق ملكيتهم وحيازتهم لها بحدود عهد الاستخلاف. وأمام تجسيد لمذهب الإسلام في الإقرار بالتمايز الاجتماعي والطبقي، مع الحرص على أن تكون علاقات التمايزين طبقياً عند لحظة التوازن والعدل (الوسط). فإذا حدث الخلل والظلم عاد المنهج الإسلامي هذه العلاقات -كما صنع عمر مع بلال بن الحارث- إلى درجة التوازن والعدل، فهو لم يبلغ حياسة بلال للأرض إلقاء كاملاً، وإنما وقف بها عند حدود التوازن العادل. "خذ منها ما قدرت على عمارته، ورد الباقي إلينا نقسمه بين المسلمين".

هنا تنشأ وتصح العلاقات بين الفرد، والطبقة، والأمة، وتظل الوسطية الإسلامية الجامعة المعيار الذي يرشد هذه العلاقات، ويضمن لها البقاء في درجة التوازن ولحظة العدل، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: "الوسط، العدل، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣)" (رواه أحمد).^(٢)

(١) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

المواهب

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، مطبعة صبيح، القاهرة، ضمن مجموعة، بلون تاريخ.
(٢) أدب الدنيا والدين، ولماوردى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م، ص: ١٣٤.
(٣) أدب الدنيا والدين، ص: ٢٩٣.
(٤) وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ سَمَاوَاتُ وَبُيُوتُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَنُفَسِّرُنَ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٢١-٢٠).
(٥) تاريخ الطبري، لابن جرير الطبري، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٣/٤.
(٦) فتح البلاء، للإمام علي بن أبي طالب، دار النسيم، القاهرة، ص: ٣٣٧.
(٧) إخراج لحن من آدم طيبة الفاهرة، ١٣٧٤م، ص: ٩١-٩٣، الأموال لأبي عبد القاسم بن سلام، طبعة الفرق، القاهرة، ١٩٨٩م، ص: ٣٨٢-٣٨٤.

منهجية الاستمداد التكاملي لمعارف الوحي

أ.د. سعيد شبار *

أ

صورة المبرهن التمثيلي". لذا فهو يرى "أن أعظم سبب سلب منا الراحة في الدنيا وحرَم الأجانب من سعادة الآخرة وحجب شمس الإسلام وكسفها، هو سوء الفهم وتوهم مناقضة الإسلام ومخالفته لحقائق العلوم. فبما للعب كيف يكون العبد عدو سيده، والحادم خصم رئيسه، وكيف يعارض الابن والده! فالإسلام -سبب العلوم ومرشدها ورئيس العلوم الحقة والهدى". فالإنسان -حسب النورسي رحمه الله- مزود بقدرات مهمة وإن لم تكن هائية، وتوظيفها بتوازن في النظر والاستنباط للتحقق بواجبات وتكاليف الدين هو المطلوب، إذ الإنسان مسؤول عن كل أجهزته وموارثه المنعم بها عليه من فطره، والتي تحمله على عوالم لا متناهية في التعرف على خالقه وعلى نفسه وعلى الكون المحيط به، كما يدل على ذلك صريح الآية ﴿إِنَّ الشَّمْعَ وَالنَّصْرَ وَالْقَوَادُّ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

ولهذا كما كان النورسي رحمه الله مدمن النظر في آيات النص المسطور، كان كذلك في آيات الكون المنظور. وكما يقول عنه تلامذته كان دائم المطالعة والقراءة لكتاب الكون، له تعامل خاص مع سائر المخلوقات والموجودات. وكان يسألهم: "اتقروا كما

إن التفريق في الاستمداد بين مصادر المعرفة (نصا وعقلا وواقعا) باعتماد بعضها دون الآخر ينتج على الفور نزعات فكرية أكثر مما ينتج معرفة متكاملة. وهذا سبب من أسباب الفرقة والخلاف والنزاع بين طوائف وتيارات الفكر الإسلامي ذات النزوع النصي الحرفي، أو العقلاني الصرف أو الدهري الواقعي جدا، ومنها الباطني الغالي وهكذا. فالأصل في المعرفة أن تنال حظا من هداية وإرشاد الوحي، وحظا من اجتهد ونور العقل، وحظا من حاجات وإنزال العصر والواقع. تلك وحدها المعرفة القابلة للاستمرار والمقبولة عند ذوي العقول والفطر السليمة.

نجد العلامة النورسي رحمه الله يدافع عن هذا الاختيار التكاملي بين مصادر المعرفة، باعتباره موحدا لفكر الأمة من جهة، وتحقيقا لشرط كسبها الاجتهادي لزماتها من جهة أخرى، وتحقيقا لثمرات وحدها الواقعي من جهة ثالثة. يقول -رحمه الله- معبرا عن امتزاج نظره العقلي بيقينه القلبي ومشهودات الواقع الحسي: "اعلم أن عقلي قد يرافق قلبي في سره، فيعطي القلب مشهوده الذوقي ليد العقل، فيبرزه العقل على عادته في

أقرأ؟". يقول في "الآية الكبرى": "مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه" في بيان قوله تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفًا غُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤). "إن آيات كثيرة في القرآن الكريم - أمثال هذه الآية العظمى - تذكر في مقدمة تعريفها خالق هذا الكون "السموات" التي هي أسطح صحيفة للتوحيد، بحيث ما يتأمل فيها متأمل إلا تغمره الخيرة ويغشاها الإعجاب فيستمتع بمطالعته بكل ذوق ولذة".

ولا يخفى أن الجمع بين القراءتين محدد منهاجي أساس في التعامل مع آيات الكتابين فهماً واستنباطاً وتعرفاً واستكشافاً، باعتبارها دلائل متجانسة متناسقة على الخالق سبحانه. وعلى اعتداد رسائل النور بنجد الشواهد حاضرة وقوية من الكتابين معا. وهو ما أضفى عليها خصوصية الجدة والتفرد والإقبال الكبير.

ملاحظة منهجية

وللنورسي رحمه الله ملاحظ منهجية كثيرة من خلال القرآن الكريم تمهد السبيل أمام هذا الضرب الجامع من القراءة، نذكر منها مسألة مهمة جدا تتعلق بمنهجية الجزئي على الكلي، والفروع على الأصول، والحاجيات على الضروريات؛ إذ بذلك تشعبت الآراء واختلفت وتمايزت وتعددت حتى لا تكاد تلمس بينها أصلا ناطما يوحدنا. ومن هنا كان إلحاحه على الانتباه إلى القرآن الكريم في عرضه للأصول وللكتليات الشاهدة والمسددة لحركة الفروع والجزئيات الضابطة لتغيرها وتبدلها زمانا ومكانا؛ فـ"إن هناك خطرا عظيما في مرجع الضروريات الدينية مع المسائل الجزئية والفريعية والخلافية وجعلها كأها تابعة لها". ولهذا يرى أنه "لو كان قد بُيِّنَ القرآن الكريم ضمن بيان الضروريات الدينية مباشرة، لكان الذهن ينتقل انتقالا طبيعيا إلى قدسيته ولآثار الشوق إلى الاتباع ولئبته الوجدان إلى الاقتداء، وعندها تنمو ملكة رهافة المشاعر لدى المخاطب بدلا من صممها أمام حوافر الإيمان وموظفاته". وعلى الكتب الفقهية في هذا السياق: "أن تكون شفافا لعرض القرآن الكريم وإظهاره، ولا تصحح حجبا دونه كما آلت إليه بمرور الزمان - من جراء بعض المقلدين - وعندئذ تجدها تفسيرا بين يدي القرآن وليست مصنفات قائمة بذاتها".

وهذه ملاحظة منهجية مهمة توضح أمرين أساسيين:

١- كون كتب الفقه والتفسير وغيرها من الكتب الدائرة

حول القرآن الكريم يجب أن تكون شفافة؛ معناه أن تنعكس فيها وعليها حقائق القرآن وخصائصه، وأن لا تحجب شيئا من ذلك فتبرز أجزاء دون أخرى. وهذا ما حدث للأسف، إذ نجد الأحكام المستنبطة من القرآن ما هي إلا جزء يسير منه، فلم ينظر إلى كون كل آية فيه حكم وحكمة ودلالة واعتبار وتصديق وإيمان.. ولهذا لم تتبلور أحكام علوم كثيرة أخرى أهمها علوم الإنسان وعلوم العمران رغم حضورهما القوي في القرآن الكريم، بل نظر إليها وكأنها شيء آخر خارج نطاق الإيمان والأحكام بل والقرآن. ٢- الشفافية تقتضي ألا يتحول الفرع المبين إلى أصل متبع بدل الأصل، بل ينبغي أن يكون دالا على عليه كاشفا عن مكنونه ومجيلا قارته عليه.

يوضح النورسي منهجية القرآن الكريم أكثر في عرض هذه الحقائق التي ينبغي أن تكون دليلا مساعدا للمستنبط والمستمد من القرآن عموما، بالشكل الذي لا يقرأ به هذا الكتاب قراءة عذنية، فبقى أصول المعرفة مهيمنة على فروعها ويبقى أصل الوحدة ضابطا لمظاهر التجزيء بقوله: "اعلم أن من مزيات القرآن إيراد مذكرات الوحدة خلف مباحث الكثرة، والإجمال عقيب التفصيل، وترديف بحث الجزئيات بدساتير الربوبية المطلقة ونواميس الصفات الكمالية العامة الشاملة، بذكر فذلكات كالتناجج والتعديلات في آخر الآيات، لأجل ألا يتغلغل ذهن السامع في ذلك الجزء المذكور، فينسى "عظمة مرتبة الألوهية المطلقة" حتى يخل بلوازم آداب العبودية الفكرية لذات العظمة والهيبة والكبرياء. وكذا ليسقط ذهنك من ذلك الجزئي إلى أمثاله وأشباهه. وكذا يريك القرآن هذا الأسلوب ويفهمك أن في كل جزئي -ولو حفيرا وزائلا- سبيلا واضحا وصرطا مستقيما ومحجة بيضاء إلى معرفة سلطان الأزل والأبد وإلى شهود صلوات أسماء الأحد والحمد".

تكامل العلوم وانتظامها المنهجي في الوحي

وهذا المبحث فرع تابع للمبحث السالف لأنه بتكامل مصادر المعرفة تتكامل العلوم والمعارف، إذ لكل مصدر علوم تنشق عنه وتلور حوله بيانا وتوضيحا وبناء وتأسيسا، والأصل فيها التداخل والتكامل، ولوحة الغاية والمصدر، وليس التقابل والتنافر والامتناس في دوائر خاصة لا تطل على غيرها ولا تتواصل معها. وهذا الذي حدث تاريخيا -كما ألمحنا سلفا- من حيث التأثر في المناهج والفرق والطوائف، إنما هو من التحيزات والأفهام الخاصة التي

كبير، بحيث لا تكون نسبةُ مسائل العلم الذي ألف الكتاب فيه إلا زكاةً محتواه". وقرر من جهة أخرى أن: "من الحقائق التاريخية، أن الشخص الواحد لا يستطيع أن يتخصص في أربعة أو خمسة من العلوم ويكون صاحب ملكة فيها"، وإنما "[يتخذ] المرء أحد العلوم أساساً وأصلاً و[يـ]جعل سائر معلوماته حوضاً تحزن فيه". فـ"كما لا تستعري لوازم البيت المتنوعة من صنّاع واحد فقط، بل يجب مراجعة المتخصص في صناعة كل حاجة من الحاجات، كذلك لا بد من توفيق الأعمال والحركات مع ذلك القانون الشامخ بالكمالات (قانون الفطرة)، ألا يشاهد أن من انكسرت ساعته، إذا راجع خياط خياطتها فلا يقابل إلا بالجزء والاستخفاف".

أكثر من هذا، نجد عند النورسي رحمه الله نقاؤاً كبيراً بخصوص هذه العودة المحمودة إلى هذا الأصل التكاملي، إذ يراه انتصاراً للحق وبرهاناً عليه وسبيلاً من سبل عودته للظهور. يقول: "ولما كان المهيم هو الحق والرهان والعقل والشورى في خير القرون وعصور السلف الصالح، لم يكن للشكوك

والشبهات موضع. كذلك نرى بفضل انتشار العلوم في الوقت الحاضر وهيمنتها بصورة عامة، وفي المستقبل هيمنةً تامةً إن شاء الله ﷻ، سيكون المهيم هو الحق بدلاً من القوة، والرهان بدلاً من الطبع، والهدى بدلاً من الهوى"، فـ"من محاسن سلطان الفكر أن تخلصت شمس الإسلام مما كان يحجبها من غيوم الأوهام والخيالات. بل أخذت كل حقيقة منها بنشر نورها، حتى المتعنفين في مستقبل الإلحاد أخلصوا يستفيدون من ذلك النور". و"ما جعل الإسلام يتجلى دوماً وتكشف حقائقه وتبسط بنسبة انبساط أفكار البشر، إلا تأسس على الحقيقة وتقلد الرهان ومشاورته العقل واعتلاؤه عرش الحقيقة ومطابقته دساتير الحكمة المتسلسلة من الأزل إلى الأبد ومحركاتها. أفلا يشاهد كيف يحيل القرآن الكريم في فوائحه أكثر الآيات وخواتمها البشر إلى مراجعة الوجدان واستشارة العقل بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْظُرُونَ﴾ (العنكبوت: ١٧)".

جعلت كل طائفة تستقل عن الأخرى دون القدرة على التكامل معها. وكان لعامل تصنيف العلوم وتمييز بعضها عن بعض -تسهيلاً لتلقيها والتعرف على أحكامها- أثر كذلك في هذا الانقطاع. إذ تحول هذا الاعتبار المنهجي إلى واقع موضوعي يصعب الانفكاك عنه بالممارسة والتداول التاريخي، خصوصاً بين العلوم المسماة "عقلية ونقيلية"، "عادية وعادية"، "حكمة وشرعية".. وتطور هذا التمييز ليأخذ أشكالا أخرى في فكرنا الحديث والمعاصر في ثنائيات من قبيل: "حديث/قديم"، "ديني/مدني"، "شرعي/عقلي"، "أصيل/معاصر".. وكأنه لا علاقة لأحدها بالآخر. أدرك النورسي -رحمه الله-

هذا الواقع، ولهذا سعى جاهداً وبجهداً إلى الدعوة إلى بناء جامعة على غرار الأزهر، يكون لها من السعة والإشعاع والتكوين والتعليم في القارة الآسيوية، ما له في مصر والقارة الإفريقية. جامعة كما يقول: "تصافح فيها العلوم النابتة من الفلسفة مع الدين، وتتصالح الحضارة الأوربية مع حقائق الإسلام مصالحة تامة، وتتفق المدارس الحديثة

وتتعاون مع المدارس الشرعية". مدرسة يتم فيها "مزج العلوم الكونية الحديثة ودرجها مع العلوم الدينية؛ [فـ]أضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فامتزاجهما تتجلى الحقيقة فتتربى همة الطالب وتعلو بكل الجناحين، وباقتراحهما يتولد التعصب في الأولى والجيل والشبهات في الثانية".

وهذا تتكامل دوائر العلوم الحديثة وتثمر، كما يصبح محصلها متحققاً بالعلم والمعرفة على حقيقتها وليس بصور متوهمة منها. كما يكون التعرف على الخالق أكمل والارتباط به أوثق، من خلال الجبال المتعددة الملودة إلى أصل واحد، وهو قانون سني سارٍ في الكون، من أخذ به قام ومن أهمله نام.

وبخصوص تكامل العلوم وإمكان استيعابها فهو يقرر من جهة "أن علوماً كثيرة تتزاحم في كتاب واحد، فيسبب تعانقها وتجاورها بإمداد بعضها بعضاً وإنتاج بعضها بعضاً يحصل تشابك إلى حد

لا يخفى أن من أهم الحوافز المساعدة على عمق وسعة الاستمداد الإيمان بقدسية الكتاب وكونه بلسماً شافياً، والإيمان بأن النظر فيه تدبراً وتفكيراً تكليف شرعي كسائر التكاليف تترتب عليه جزاءات.

استشارة الجواب المكونة في النص

إليه من أسماء فاطره. والوجه الثاني أوسع مجالا وأكمل مآلا، إذ إن كل حرف من كتاب يدل على نفسه بمقدار حرف وبوجه واحد، ويدل على كتابه بوجوه كثيرة، ويعرف كتابه ويصفه للناظر بمقدار كلمات كثيرة.. كذلك إن كل مصنوع الذي هو حرف من كتاب القدرة، يدل على وجوده ونفسه بمقدار جرمه وبوجه واحد هو وجوده الصوري. لكن يدل على نقاشه الأزلي بوجوه متنوعة كثيرة، وينشد من أسمائه المتجلية على ذلك المصنوع بمقدار قصيدة طويلة (...). فمن هذا السر ترى كتب الفلاسفة أحكم فيما يعود إلى الكائنات في أنفسها، مع أنها أوهن من بيت العنكبوت فيما يعود إليها بالنسبة إلى صانعها. وكلام المتكلمين مثلا لا ينظر إلى المسائل الفلسفية والعلوم الكونية إلا بالمعنى الحرفي التبعية والاستطرادي للاستدلال فقط".

فالقرآن الكريم عند النورسي "خطاب إلهي شامل لجميع طبقات الجن والإنس ولكل العصور والأحوال والظروف كافة". وذكر القرآن لبعض الغايات الراجعة إلى الإنسان إنما هو للإخطار لا للاختصار، أي لتوجيه نظره إلى الدقة في فرائد نظام ذلك الشيء ذي الغاية في انتظامه الدال على أسماء صانعه،

إذ الإنسان إنما يهتم بما له علاقة ما به، فيرجح ذرة ما إليه على شمس ليست إليه، مثلا في قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرُ قَدَرًا وَمَنَازِلَ﴾ (س: ٣٩)، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَّةَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (س: ٥)، هذه غاية من ألسوف غايات تقدير القمر وليس المراد الاختصار. أي إنما خلق ذلك لهذا. بل إن هذا هو المشهود لكم من ثمرات ذلك".

فالقرآن المجيد إذن معطاء عطاءً غير مجذوذ، لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، يحل الجزء منه على الكل، والكل على الجزء في علاقة نسقية بدعية. وإنما يتطرق القصور والإهمال من جهة نسبية ومحدودية النظر الإنساني، خصوصا إذا عمد هذا الناظر إلى وضع سياجات وحلود حول النص لا تسمح بأن يفهم منه إلا ما فهمه هو. فبدل أن يبقى النص رسالة مفتوحة للعالمين تستوعب الزمان والمكان، تتحول بأفهام قاصرة إلى دوائر مغلقة لا تكاد تعبر عن آراء طائفة من الناس. وقد كان النورسي -رحمه الله- شديد التكرير على هذا الصنف من المضيقين واسعا والمعترضين على غيرهم بما فهموه. كما يرجع النورسي هذا الإهمال لشمول الأحكام في الفقه إلى الاهتمام بالقضايا الفرعية والخلافية وترك الأركان والكتليات التي هي الأعمدة والأصول. وهو تنبيه منه -رحمه الله- إلى أن

لا ينبغي أن تفتح خللا كبيرا في قضية استمداد الأحكام من الوحي، إذ نطُر إلى الأحكام من خلال دائرة ضيقة، لا تكاد تتجاوز قضايا المكلف الفرد والجماعة. ولهذا نطُر إلى آيات الأحكام منحصرة في بضع مئات على الأكثر (حوالي ٥٠٠)، أو في بضع عشرات على الأقل (حوالي ٨٠). وما تبقى من القرآن هو للأخبار والوعظ والتذكير... إلخ. في حين أن كل آية هي حُكْم ناطق وحكمة بالغة ووعظ واعتبار وهداية وإرشاد.. سواء كانت حكما تكليفيا مباشرا أو خيرا اعتباريا أو غير ذلك.

تبتدئ المسألة عند النورسي باستعداد القارئ نفسه وقوة إرادته وعزمته في النظر والاستعداد. أي أن ينظر كل في مجال اختصاصه وأهليته حيث بإمكانه الإبداع والعطاء. فعنده أن "ترك المستلما هو أهل للقيام به وتشبيها بما ليس أهلا له، عصبان كبير وخرق فاضح لطاعة الشريعة الكونية (شرعية الخلقة)، إذ من شأن هذه الشريعة انتشار استعداد الإنسان ونفوذ قابليته في الصنعة واحترام مقاييس الصنعة ومحبتها وامتثال نواميسها والتمثل بها".

توسيع دائرة الاستعداد

وفي توسيع دائرة الاستعداد والنظر في القرآن الكريم وأهلية الإنسان لاستنارة جواربه المختلفة يقول: "إن في القرآن الحكيم حوادث جزئية، لكن وراء كل حادث يكمن دستور كلي عظيم، وإنما تذكر تلك الحوادث لأنه طرف من قانون عام شامل كلي وجزء منه. فالآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١) تبين أن الأسماء معجزة من معجزات سيدنا آدم عليه السلام تجاه الملائكة إظهارا لاستعداده للخلافة. وهي وإن كانت حادثة جزئية إلا أنها طرف لدستور كلي وهو: أن تعليم الإنسان -المالك لاستعداد جامع- علوما كثيرة لا تحدد، وفنونا كثيرة لا تحصى، حتى تستغرق أنواع الكائنات، فضلا عن تعليمه المعارف الكثيرة الشاملة لصفات الخالق الكريم سبحانه وشؤونه الحكيم.. إن هذا التعليم هو الذي أهل الإنسان لينال أفضلية، ليس على الملائكة وحدهم، بل أيضا على السموات والأرض والجن والحيوان في حمل الأمانة الكبرى".

فالنظر إلى القرآن إذن نظر كلي مستوعب وإن تعددت الجزئيات، يطول كل الكائنات ويستوعبها، يؤسس لكل العلوم ويرشدها، يعرف بالخالق ويظهر جليل وحجل صنعته. يضيف في هذا الاتجاه موضحا: "أن في كل مصنوع وجهين: وجه ينظر إلى ذاته وصفاته الذاتية، ووجه ينظر إلى صانعه وإلى ما تجلئ





لا تعاكسيني يا عاصفات الليالي

تكسر قفصي، انفتح بابي،
وداعاً يا أيام الاغتراب،
إلى أجواء الحرية خلقتُ،
ومن مخلوّك أيامي تخلصتُ،
هيهات هيهات...
فلتأت ألف عاصفة...
فلن تعيدني للقفص من جديد...



الرجوع إلى العزة والمنعة، ومقررات النهضة والتوحد في الأمة، إنما يكون بالاستمساك بالأصول والأركان وجعلها مداراً حركة الإنسان والعمران، بدل الإيغال في الفروع والجزئيات غير المنضبطة إلى ضابط أصل يستوعبها ويرشد حركتها. فاجتزائية الشاردة عن مجموعتها كالجندي الشارد عن فريقه، كلاهما خارج نظام العمل الجماعي النسقي المتكامل. يلتفت النورسي كذلك النظر إلى مسألة غاية في الأهمية بخصوص علاقة الإنسان بالقرآن وهي قدسية هذا الكتاب الحاملة على الانقياد له، "الذي يسوق جمهور الناس إلى الاتباع وامتنال الأوامر هو ما يتحلى به المصدر من قدسية، هذه القدسية هي التي تدفع جمهور الناس إلى الانقياد أكثر من قوة الرهان ومنانة الحجة".

خلاصة

نخلص مما تقدم إلى أن منهج الاستمداد من الوحي منهج متكامل وتداخل فيه عناصر متعددة، على رأسها التزود بالعلوم المساعدة، وعلى رأسها - كما قال الشاطبي مختصراً من غير تطويل - العلم باللغة العربية وبمقاصد الشريعة، لكنه يحتاج مع ذلك إلى إخلاص ونية وتجرد، وإقبال ومشكلات وهموم التماسا لحلوطها، وبحث عن المكنون وامتداداته. كما لا يخفى أن من أهم الحوافز المساعدة على عمق وسعة الاستمداد الإيمان بقدسية الكتاب وكونه بلسماً شافياً، والإيمان بأن النظر فيه تدبراً وتفكيراً تكليف شرعي كسائر التكاليف تترتب عليه جزاءات. ففي القرآن الكريم معالم منهاج استمدادي متكامل هو الذي درجت عليه السنة النبوية في بياها، وكان عليه المصدر الأول. لكن ما جاء بعد من تراكم في العلوم والمعارف الدائرة حول هذا الأصل، وإن شكلت إبداعاً متفرداً للأمة بين سائر الأمم، فإنها - أو جانب منها على الأقل - شكّل عوائق وموانع حالت دون استمرار الاستمداد على منهاج القرآن والسنة. وهذا الذي حاولنا فيما تقدم الكشف عن بعض جوانبه، باعتبارها مشكلات تحتاج إلى مراجعة وإعادة بناء، سواء تعلق الأمر بمصادر المعرفة في تكاملها، أو تكامل دوائر العلوم وإمساك بعضها ببعض وارتباطها بالأصل، بما يحقق أصل الوحدة والتوحد على مستوى الفكر والثقافة ويدبر آفة الجزئية والتجزئة فيهما، التي طالبت واقع الأمة الاجتماعي والسياسي كذلك. ■

^(١) جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب، بني ملال / المغرب.

المصادر

^(١) كلمات رسائل النور، ليديع سعيد النورسي. ترجمة: إحسان قاسم الصالح، الأجزاء: ١ - الكلمات، ٤ - المشاععات، ٦ - الشوي العربي النوري، ٨ - صيقل الإسلام، ٩ - سيرة ذاتية.



الإيمان وجيب قلب، وهزة جنان، وعقيدة هي تلايف دماغ، وإقرار
باللسان، ومعرفة بالله وقرآنه، ورسوله وسنته... مرآته العبادات، على
الجوارح تنعكس، وفي الضمائر تستقر...

...



سكة حديد الحجاز

صالح كولن *

ق

فكرة المشروع

قبل قرن كامل مضى، وبالتحديد عام ١٩٠٨م، كانت القطارات البخارية تنطلق من محطة قطار "حيدر باشا" بإسطنبول إلى المدينة المنورة، معلنة أن حلماً صعب المنال قد أصبح حقيقة تندر كهها الألبار والأسماع. فقد كان الأول من سبتمبر عام ١٩٠٨م، هو يوم اكتمال خط حديد الحجاز وانطلاق رحلته الأولى بعد ثمانية أعوام من عمل شاق متواصل أسفر عن خط سكة حديدية تجاوز طوله ١٤٠٠ كم. فاستحال به خريف عام ١٩٠٨م -مع ما فيه من الأزمات والمشكلات- مسرعا تزاحمت فيه آمال المسلمين وطموحاتهم في شق ربوع الأرض مستبشرين ببعث جديد. وأضحى حلم مشاهدة سحب الدخان الكثيفة وهي تتبع من القطار البخاري المنطلق من إسطنبول إلى الأراضي الحجازية، حقيقة قد تجسدت على أرض الواقع بعد أن كان ضرباً من الخيال.

عُرف خط حديد الحجاز في السجلات العثمانية باسم "خط شندفر الحجاز"، أو "خط حديد الحجاز الحميدي"، وامتد بين الشام (دمشق) والمدينة المنورة. حيث ينطلق الخط من الشام ماراً بعمّان ومعان ثم بتبوك ومدائن صالح وصولاً إلى المدينة المنورة. وكان في خطة المشروع الحجازي أن تمتد بعد ذلك إلى مكة المكرمة ومن هناك إلى جدة، بيد أن أياً من ذلك لم يتحقق. وإن تكن فكرة إنشاء الخط الحجازي قد طُرحت أول ما طُرحت في عهد السلطان عبد العزيز، إلا أنها تحققت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. ولما كانت جهود السلطان عبد الحميد الثاني منصبة على العمل من أجل إيقاف تمزق الدولة العثمانية وانحيارها أو تعطيئه على الأقل، فقد أخذ على عاتقه إنجاز مشروع الخط الحجازي.

التهاجم وعلى رأسها الدول الأوروبية، أن ثمة منجزات حضارية عظيمة يمكن للعثمانيين تحقيقها دون الحاجة إلى اللجوء إليها.

وكان للسلطان عبد الحميد الثاني أهداف سياسية مهمة وراء إنشاء الخط الحجازي. إذ اعتقد بأن إنجاز هذا المشروع يعني تحقيق قدر من الاستقلالية للدولة العثمانية عن أوروبا، عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وتقنياً. فالسلطان عبد الحميد الثاني والذي عُرف بتميزه عن سابقيه ببحرته على بقاء الخلافة العثمانية وحمايتها لها، كان يبذل ما بوسعه بُعْية توحيد صفوف المسلمين وتشكيل "اتحاد إسلامي" لمواجهة الأطماع الأوروبية الاستعمارية وهجماتها العاشمة على الدولة العثمانية، إضافة إلى دعمه لحركة "الجماعة الإسلامية" التي دعت إلى تشكيل جميع المسلمين داخل الدولة العثمانية والمناطق المختلفة من العالم خلف راية الخلافة العثمانية. ولعل خط حديد الحجاز يعتبر من أروع إنجازات السلطان عبد الحميد الثاني الرامية إلى الحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية.

الإنشاء والتفصيل

يتحدث السلطان عبد الحميد الثاني عن الخط الحجازي في مذكراته بقوله: "أخيراً تحقق الخط الحجازي؛ ذلك الحلم الذي طالما راود مخيلتي. فذلك الخط الحديدي لم يكن فقط مصدراً اقتصادياً للدولة العثمانية، بل كان في الآن ذاته يمثل مصدراً بالغ الأهمية من الناحية العسكرية من شأنه تعزيز قدرتنا العسكرية على امتدادها". وقد أصدرت الإدارة السلطانية الخاصة قراراً بالبدء في إنشاء خط حديد الحجاز في الثاني من مايو عام ١٩٠٠م، وفي الأول من سبتمبر عام ١٩٠٠م، والذي يوافق العام الخامس والعشرين لجلوس السلطان عبد الحميد الثاني على عرش الدولة العثمانية، تم تدشين العمل في خط الحديد بين الشام ودرعا في احتفال رسمي مهيب. ووصل خط الحجاز إلى عَمَّان عام ١٩٠٣م، وإلى معان عام ١٩٠٤م. وفي الأول من سبتمبر عام ١٩٠٥م اكتملت المرحلة الأولى من خط الحجاز، وانطلقت أولى رحلات القطار بين الشام ومعان لنقل الركاب والبضائع.

وفي الأول من سبتمبر ١٩٠٦م وصل الخط إلى مدائن صالح، ثم في ٣١ أغسطس ١٩٠٨م وصل إلى المدينة المنورة. وخلال الثمانية أعوام التي جرى فيها تنفيذ خط الحجاز وصل طول الخط إلى ١٤٦٤ كم. ومع إضافة الخطوط الفرعية الأخرى في المراحل اللاحقة بلغ طول الخط ١٩٠٠ كم عام ١٩١٨م. وكان الجيش العثماني هو المصدر الرئيسي للقوة العاملة في

أوكل السلطان عبد الحميد الثاني مهمة تنفيذ هذا المشروع العملاق لـ "أحمد عزت باشا العابد" المعروف في التاريخ باسم "عزت باشا العربي". ويتضمن المشروع، إنشاء خط سكة حديد الحجاز ليربط بين خط سكة حديد الأناضول وخط سكة حديد بغداد، وكذلك تأسيس شبكة اتصال تلغرافية بمحاذاة ذلك الخط الحديدي؛ حيث كان السلطان عبد الحميد الثاني يؤمن بأن هذا سيقطع له سهولة وسرعة في عمليات الاتصال والمتابعة بين مركز الدولة العثمانية ولاياتها في الشام والحجاز.

البواعث والأهداف

ثمة مجموعة من البواعث والأهداف دفعت السلطان عبد الحميد الثاني لإنشاء الخط الحجازي والشبكة التلغرافية. وتنوعت هذه الأهداف بين دينية وعسكرية واقتصادية وحضارية وسياسية. ويأتي الهدف الديني في مقدمة هذه الأهداف، حيث استهدف مشروع الخط الحجازي خدمة حجاج بيت الله الحرام من خلال توفير وسيلة سفر يتوفر فيها الأمن والسرعة والراحة، وحماية الحجاج من غارات البدو ومخاطر الصحراء التي كانوا يتعرضون لها في الطريق البري ومن هجمات القراصنة في الطريق البحري، إضافة إلى توفير إمكانيات وفرص أكبر للراغبين في أداء فريضة الحج نتيجة انخفاض تكلفة الحج الذي سيقطعها ذلك المشروع، مما سيزيد من عدد حجاج بيت الله الحرام.

ويجتل الهدف العسكري مكانة متميزة بين أهداف الخط الحجازي، إذ كان يستهدف تسهيل التحركات العسكرية وحشد الجيوش بُعْية التصدي لأية هجمات خارجية قد تتعرض لها مناطق الحجاز والبحر الأحمر واليمن، وإحكام السيطرة على البقاع الجغرافية ذات التوتر السياسي الدائم. وبهذه الكيفية تشعر المنطقة بقوة الإدارة المركزية للدولة العثمانية.

أما الهدف التجاري فتجمل في إنعاش الاقتصاد الراكد بالمنطقة من خلال تحقيق نخصة تجارية واقتصادية لمدينة الحجاز وكافة المدن الواقعة على امتداد الخط، وإحداث عملية رواج للمنتجات التجارية والزراعية من خلال نقلها نقلاً سريعاً بالقطار إلى المناطق الأخرى، بل وكان من المخطط له مد الخط الحديدي تجاه أحد موانئ البحر الأحمر؛ ما يؤدي إلى زيادة الأهمية الاقتصادية والتجارية للخط وزيادة واضحة. وبهذه الكيفية كانت طرق التجارة تنتقل من قناة السويس إلى خط حديد الحجاز. ومع إنجاز هذا المشروع العملاق بتمويل وكوادر عثمانية، كان سيثبت للدول التي تطمح إلى تفريق الدولة العثمانية وترديد



إنشاء خط حديد الحجاز. وساهم أيضاً في إنشاء هذا الخط عمال توافدوا من مناطق جغرافية مختلفة من العالم الإسلامي في مقدمتها سوريا والعراق. ولما كانت أعداد أولئك العمال الوافدين محدودة، فقد تحمل الجنود العثمانيين معظم أعباء ذلك المشروع. وكان الجنود يتقاضون أجوراً ضئيلة خلال فترة عملهم في المشروع، في مقابل السماح لهم بالانتهاء من الخدمة العسكرية قبل عام من موعدها المحدد.

تولى منصب كبير مهندسي الأعمال الفنية، مهندس ألماني يُدعى "مايسر باشا"، وعمل تحت قيادته أربعة وثلاثون مهندساً، سبعة عشر منهم عثمانيون والآخرون كان معظمهم من الألمان، بالإضافة إلى مهندسين من إيطاليا وفرنسا والنمسا وبلجيكا واليونان. وبعد وصول الخط الحديدي إلى محطة مدائن صالح أصبح الجزء المتبقي من الخط داخل حيز المنطقة الحرام. ولما كان من المحظور شرعاً دخول غير المسلمين إلى هذه المنطقة، فقد جرى إنشاء الخط الواقع بين مدائن صالح والمدينة المنورة كله بأيدي مهندسين وعمال مسلمين.

ومع تقدم العمل في المشروع ازدادت خبرة العثمانيين، وعليه قلت أعداد المهندسين الأجانب في المراحل المتقدمة منه أمام أعداد المهندسين المسلمين التي كانت تزداد يوماً بعد يوم. ومن ثم تميز خط حديد الحجاز بوصفه مشروعاً عمل فيه الكثير من المهندسين المسلمين، قياساً بخط حديد الأناضول وخط حديد بغداد.

تضحيات بطولية

استغرق إنشاء الخط الرئيسي لطريق الحجاز ثمانية أعوام، وعمل فيه نحو خمسة آلاف عامل معظمهم من الأتراك وبعضهم من العرب وبعضهم من أجناس مسلمة أخرى. ولا شك أن قيام الجنود العثمانيين بالعمل في هذا المشروع قد خفض كثيراً من النفقات. وهو ما يأتي في مقدمة العوامل المهمة في إنجاز هذا

الموقف الأوربي

تلقت أوروبا الإعلان عن الخط الحجازي بهشّة بالغة، واعتبرت إقدام الدولة العثمانية على مشروع مثل هذا ضرباً من الخيال، حيث كانت الدولة العثمانية آنذاك في وضع اقتصادي متدهور أوشكت فيه على الإفلاس بسبب ديونها الخارجية والداخلية؛ حتى أن بعض الصحف الأوروبية آنذاك قد تناولت عبر صفحاتها

على المشروع والسلطان عبد الحميد الثاني بالاستهزاء والسخرية، وخصصت لذلك أخباراً مقفولة ورسوماً كاريكاتيرية ذبّية.

ومع التقدم في إنشاء الخط وإظهار القائمين عليه لتضحيات كبيرة، أخذت الدول الأوروبية تضع العراقيل للحيولة دون إكمال العثمانيين لهذا المشروع. وكانت بريطانيا وفرنسا في مقدمة هذه الدول. فأسرعت تلك الدول ولا سيما بريطانيا للحيولة دون مساندة الشعوب التي تخضع للاستعمار البريطاني لهذا المشروع، حيث قامت بنشر الشائعات بين المسلمين الهنود الذين يقومون بالترع لإقامة الخط الحجازي، وأطلقت شائعات مثل أن "الترعات لا تُستخدم في إنشاء الخط الحجازي". بيد أن هذه المحاولات قد باءت بالفشل التام، واستمر المسلمون الهنود في جمع التبرعات وإرسالها إلى الدولة العثمانية. كما حظر الاستعمار البريطاني على مسلمي الهند تعليق "وسام خط حديد الحجاز" الذي يُمنح لكبار المتبرعين.

وقد سعت بريطانيا إلى استعمال شتى الطرق من أجل انسحاب العثمانيين من الأراضي المقدسة بعد الحرب العالمية الأولى. وما يلفت النظر هنا أن تعطيل خط حديد الحجاز كان أول ما قامت به بريطانيا بعد انسحاب العثمانيين من مكة والمدينة المنورة؛ إذ كانت تنظر إلى الخلافة العثمانية باعتبارها التهديد الأكبر ضد طموحاتها الإمبريالية في الشرق الأوسط والشرق الأقصى، ومن ثم فقد شعرت بارتياح شديد بعد أن قامت بقطع الروابط بين الأناضول وشبه الجزيرة العربية من خلال تعطيل الخط الحجازي. أما فرنسا فقد سعت لفرض القيود والعقبات أمام إنشاء خط حديد الحجاز من خلال الموانئ التابعة لإدارتها؛ حيث فرضت ضرائب جمركية باهظة على مستلزمات خط الحديد، وعطلتها داخل الموانئ فترات طويلة.

وإن تكن كل هذه العقبات قد أبطلت من معدل إنجاز الخط، إلا أنها لم تستطع أبداً إيقاف عجلة التقدم نحو الانتهاء من تنفيذ المشروع. واكتمل خط حديد الحجاز رافعاً راية العصيان والتحدى في وجه الاستعمار الأوروبي، ومعلناً أن قلب "الرجل المريض" لا يزال ينبض بالحياة.

المصادر المالية

كان فترة سلطنة السلطان عبد الحميد الثاني من أصعب فترات الدولة العثمانية من الناحية الاقتصادية. ولم يأل السلطان عبد الحميد جهداً من أجل سدّ الديون الخارجية الضخمة التي ورثها عن أسلافه. ورغم أنه قد اضطر للحصول على قروض خارجية

ضئيلة في بعض الأوقات، إلا أن ما قام بسداده كان يفوق بكثير ما اقترضه. وكان يندر أن الديون الخارجية تزعزع هيمنة الدولة، والديون الداخلية تزعزع سلطتها. ومن ثم لم يفكر في الحصول على أي قروض خارجية لتمويل إنشاء خط حديد الحجاز. وكانت التبرعات -وللمرة الأولى في تاريخ الدولة العثمانية- هي المصدر الأول لتمويل هذا المشروع الضخم. فكان تمويل خط حديد الحجاز من تبرعات المسلمين في شتى أنحاء العالم دون أن تشوبه أي مساهمة من الدول الأجنبية على التقيض من خطي سكة حديد الأناضول وبغداد الذين أقيما بتمويل أجنبي.

وكانت الدولة العثمانية قد خصصت ١٨٪ من ميزانيتها لإنشاء هذا الخط، بيد أن تلك النسبة اعتبرت ضئيلة للغاية عندما تم الإعلان عن أن إنشاء الخط سيتكلف نحو ثمانية مليون ليرة عثمانية. ومن ثم برز الاحتياج الشديد للأموال اللازمة لتنفيذ المشروع. ذلك المشروع الذي اعتبره المسلمون بمثابة "مسألة عزة وكرامة" أمام أوروبا. وأراد السلطان عبد الحميد أن يجتنب دولته المزيد من الاستدانة، وأن يكون تمويل المشروع الحجازي بأموال إسلامية تماماً. فوجه نداءً إلى العالم الإسلامي من أجل التبرع للمشروع، ليُدشن بذلك حملة تبرعات قل أن يجد لها نظيراً في تاريخ العالم.

وبدأت حملة التبرعات الأولى في مايو عام ١٩٠٠م، بأن تبرع السلطان عبد الحميد الثاني من جيبه الخاص بمئتين ألف ليرة عثمانية، ودعا المسلمين كافة للمشاركة في هذه الحملة، سواء كانوا ممن يعيشون في الأراضي العثمانية أو في غيرها. ومن بعد السلطان تبرع الباشاوات العثمانيون، ثم أقبل موظفو الدولة والتجار والبايعون والجنود والشعب على المشاركة في هذا التنافس الخيري. ولقي نداء السلطان عبد الحميد استحابة تلقائية وفورية بين كافة المسلمين في شتى بقاع العالم، حيث اقتطع المسلمون من أقوالهم ومدخراتهم للمساهمة في تمويل الخط الحجازي. بل إن دولة ذات صراع تاريخي مع الدولة العثمانية مثل إيران قد جمعت أيضاً مقداراً من التبرعات -وإن كان ضئيلاً- وأرسلته إلى إسطنبول. وإغاثت التبرعات التي جاءت من مناطق مترامية الأطراف مثل الهند وأفغانستان، ومن دول أخرى مثل الجزائر والسودان وتونس وليبيا وإندونيسيا وماليزيا. وتدفقت التبرعات من كافة أرجاء العالم؛ فحات التبرعات من الشعوب التركية في آسيا الوسطى، ومن مسلمي أوروبا وأفريقيا وأمريكا. وذلك رغم كل المحاولات التي قامت بها الدول الأوروبية لصرف

لهم الوصول بالقطار إلى المدينة المنورة، وكان للخط دور في نقل الأموال. وأسدى قطار الحجاز خدمات جليلة لحجاج بيت الله الحرام، واستُخدم أيضاً في بعض الأغراض العسكرية مثل نقل الجنود من منطقة إلى أخرى. كما قام القطار بنقل البضائع بين المناطق المختلفة، وهو ما أحدث انتعاشة في الحياة الاقتصادية والتجارية. وتحددت أوقات تحرك القطارات وفقاً لمواقيت الصلاة. فكانت القطارات تتحرك على نحو لا يخل بأوقات الصلاة. فإذا ما دخل وقت الصلاة توقفت القطار وتوجه الركاب لأداء الصلاة في العربة المخصصة لذلك.

الدلالة الدينية

قد تكون نظرنا قاصرة إذا نظرنا إلى البعد الديني للخط الحجازي في نقله للحجاج فحسب. فالقطار الحجازي كان يؤدي في الوقت ذاته مهمة عريقة، ويحافظ على تقليد يضرب بجذوره في التاريخ وهو إرسال "الصرّة السلطانية" إلى الحجاز. وكان السلاطين العثمانيون كلهم تقريباً يقومون بتجهيز قدر كبير من الأموال عُرف بـ "الصرّة السلطانية" وإرسالها إلى الحجاز. وهو تقليد يرجع بجذوره إلى العباسيين ثم إلى العثمانيين اعتباراً من السلطان العثماني "يُلدريم بايزيد".

وكانت "الصرّة السلطانية" قدما تبدأ رحلتها في بداية كل ثلاثة أشهر عبر الطريق البري. وعرفت الطريق البحري مع استخدام السفن البخارية منذ عام ١٨٦٤م، ثم أصبح لها مكانها الخاص في القطار الحجازي بعد عام ١٩٠٨م. وكانت أموال "الصرّة السلطانية" مخصصة للإعارة على كافة الخدمات في مكة المكرمة والمدينة المنورة، مثل شؤون الإعمار والإصلاح وغيرها، ودفع رواتب العاملين هناك. كما كانت أيضاً مصدرًا من مصادر توفير الراحة وتيسير مناسك الحج لزوار بيت الله الحرام. إضافة إلى أن القطار الحجازي قد وفر لوفد "الصرّة السلطانية" رحلة سريعة ومرحة وأمنة.

وأخيراً وبهذه المناسبة توجه بخالص العرفان بالفضل والدعاء بالرحمة لأولئك الذين عملوا على إنشاء خط سكة حديدية الحجاز، وأولئك الذين سقطوا شهداء خلال أداء واجهم فيه، وأولئك الذين اقتطعوا من أوقاتهم ومدخراتهم للمساهمة فيه، وأولئك الذين بذلوا النفس والتفيس بكل تجرد وإخلاص لذلك المشروع. ■

هذه الشعوب المسلمة عن هذا المشروع وإقناعهم بعدم جديته. وأصبحت التبرعات التي تم جمعها من الضخامة ما تكفي لإنشاء ثلث الخط الحجازي.

وحرصت الدولة العثمانية على تكريم المتبرعين من خلال منحهم نياشين وأوسمة مصنوعة من الذهب والفضة تخليداً لذكرى الخط الحجازي. وإضافة إلى ما تم جمعه من تبرعات، فقد اضطرت الدولة العثمانية إلى الاقتطاع الإجباري من مرتبات موظفي الدولة من أجل الإسهام في إنشاء الخط. وحديث بالذكر هنا أننا لا نكاد نجد شكوى واحدة من أولئك الموظفين بسبب هذا الاقتطاع الإجباري من رواتبهم. وهو ما يُعد إشارة واضحة على أن الأمة التي تلتف حول هدف واحد، قادرة على التضحية بكل غال ونفيس في سبيل تحقيق ذلك الهدف. وتاريخ الأتراك في الفترات اللاحقة يشهد على أحداث مشابهة لتلك التضحيات، تجلت فيها هذه الروح والفكرة والعقيدة دون أن يعترها خلل أو عطب. كما حرصت الدولة أيضاً على اقتطاع جزء من دخلها العام لتمويل المشروع الحجازي، فأصدرت طوابع مغطاة متعددة الفئات المالية في كافة دوائرها الحكومية والبيروقراطية، وجمعت جلود الأضاحي وبعثتها وحملت عائداً إلى ميزانية المشروع. إضافة إلى أن نظام البدء الفوري في تشغيل رحلات الركاب والبضائع في الأجزاء التي اكتملت من الخط الحديدي، كانت مصدراً آخر من مصادر التمويل.

ورغم الانتهاء من إنشاء المشروع الحجازي، وانسحاب العثمانيين من المنطقة مع حلول عام ١٩١٨م، وتخريب الخط ونسف جسوره وانتزاع قضبانه مع نشوب الثورة، إلا أن التبرعات لم تتوقف وظلت تتدفق من مختلف أنحاء العالم. ولا ريب أن هذه الحملة العالمية والتنافس في فعل الخيرات قد أظهر للعالم كله مدى عمق الأخوة الإسلامية وقوتها ورحابتها.

حركة القطار

في الأول من سبتمبر عام ١٩٠٨م والموافق للعام الثاني والثلاثين من جلوس السلطان عبد الحميد الثاني على عرش الدولة العثمانية، قام بافتتاح خط حديد الحجاز وسط مراسم رسمية مهيبه. وكانت قبل ذلك "لجنة خط حديد الحجاز" قد قامت نيابة عن السلطان بافتتاح المحطات الممتدة على خط سكة الحديد في احتفالات رسمية أيضاً. وكان لغیر المسلمين أيضاً الحق في استخدام المحطات البينية الموجودة على خط حديد الحجاز، غير أنه لم يكن من المسموح

(١) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: د. طارق عبد الجليل.

شمس القلوب أبداً لا تغيب

✽ السنوسي محمد السنوسي ✽

في الدنيا والآخرة، وفرّج الله همّه وأذهب عنه حزنه وسدّ دينه ورزقه من حيث لا يحتسب.. وفوق ذلك، جعله من الذاكرين والذاكرات الذين أعدّ الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا.

وما يزال المؤمن بأذكاره يتقلب في روضة من رياض الجنة، يشم رائحتها الزاكية، ويقطف من ثمارها البانعة، ويركن إلى ظلها الوارف، وينعم بمعية الله؛ فهو لا يفلت في أحواله - وإن اختلفت أوقلت - ذاكرًا شاكرًا صابراً متحسباً.. فهو مع الله، والله معه، وهذا ما يومئ إليه الحديث القدسي: "أنا حليس من ذكرني". فإذا أحب الله عبداً، ألهمه شكره وشغله بذكره آناء الليل وأطراف النهار.. ولعمري، إن هذا التوفيق من الله نعمة تستحق الشكر، جزاءً - على الذكر - كفى به جزاءً.. ينبها ابن عطاء الله السكندري بحسّ مرفه إلى هذا المعنى اللطيف فيقول: "كفى من جزائه إياك على الطاعة، أنّ رضيك لها أهلاً، كفى العاملين جزاءً، ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو موردّه عليهم من وجود مؤانسته".

ولذلك، كان ذكر الله نوراً تستضيء به القلوب ويغمر الجوارح، فيسكب عليها سكينته وطمأنينة وخشوعاً.. ولئن غابت الشمس فأظلم الكون بغياها، وافترق الناس إلى وجودها.. فإن ذكر الله "شمس القلوب" لا يغيب بحال عن المؤمن، وهو ينير قلبه ما تحرّكت به شفتاه، وسكنت حوارجه لأمر رها:

إِنْ شِئْتَ النَّهَارَ تَعْرِبْ بِاللَّيْلِ

سَلِ، وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ نَغِيبُ. ■

مع نسيمات الصباح وحيال الغروب يملو للمسلم أن يربط فؤاده بأذكار الصباح والمساء. يستفتح يومه بميلاد فجر جديد فينطلق لسانه بالذكر، وحوارجه بالصلاة والتسبيح رحاءً أن يكون يومه خيراً من أمسّه، وشاهداً له لا عليه.

إن المسلم حين يلهج لسانه بذكر الله صباحاً ومساءً، فإنه بذلك يقرّ الله بالربوبية ويشهد له بالعبودية، وينضم لقافلة المسبّحين في أرجاء الكون الفسيح.. من الشجر والحجر والطير والدواب: ﴿تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفًا غُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤).

ثم حين يذهب إلى السوق أو عمله، فهو صورة صادقة لما يحمل من منهج، وما يعتق من مبادئ.. فلا غش ولا كذب، بل صدق ووفاء وحسن خلق وأمانة.. يتوكل على الله.. يأكل من رزق الله، وينفق فيما أحل الله.. وبين الحين والحين يذلف للمسجد.. يجدد إيمانه ويضاعف نشاطه ويلتزم في جنباته زاد الحياة ورحيقها.

إن ذكر الله - عند طلوع الشمس وغروبها - يُشعر المرء دائماً بلحظات الميلاد والموت، البدء والانتهاء، للكون واليوم والإنسان والحياة.. وضرورة أن يكون البدء والانتهاء وما بينهما لله، وبالله، ومن الله.. فهو سبحانه خالق الحياة، ومبتدئ الأشياء، وإليه المرجع والمآب ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿

(الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

مَنْ حَافِظٌ عَلَى أَذْكَارِ الصَّبْحِ وَالْمَسَاءِ كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبِرَهَانًا

(١) كاتب مصري.



البیروني

رائد علم الجيولوجيا

أ.د. بركات محمد مراد *



ازدهرت الحياة العقلية والروحية في عصر البيروني ازدهارا بالغا. فكان انطلاق مفكري الإسلام وعلمائه في كل ساحات الفكر وميادين العقل غير عابئين بالعراقيل والتقاليد القديمة بعد أن أعطاهم الإسلام حرية فكرية خصبة، وحر عقولهم من كل قيد إلا قيد الحقيقة والتزام الصدق والموضوعية. وبعد أن ترجموا كل ما ورثوه عن الحضارات الهندية والفارسية واليونانية، أخذوا يعملون عقولهم في كل ما ترجموه ونقلوه بعد أن مزجوه بالروح الإسلامي. فجنات كتاباتهم ومؤلفاتهم دليل خصب على حضارتهم ومميزها عن كل ما جمعه من السابقين، ومثله من الحضارات المعاصرة لهم، فأثبتوا بذلك أنهم واسطة العقد في حضارات الإنسانية.

ومن هنا أقبل العلماء المسلمون على التأليف والكتابة في مختلف فروع المعرفة العلمية، حيث تكلّموا في التطور، وإن نسب إلى "دارون" في القرن التاسع عشر. وتحدثوا في الجاذبية بين السرعة والنقل والمسافة وإن نسب كل ذلك إلى "نيوتن" دون سواه، وقد ثبت أن "الخازن" وغيره كتبوا في ذلك قبل نيوتن بمئات السنين. وتحدثوا في أثر البيئة على الأحياء قبل "لامارك". كما شرح ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى قبل "هارفي" ببضعة قرون. وكذلك الحال في طبيعة الضوء وسرعته وانكساره، والذي أثبتّه ابن الهيثم

في مؤلفاته قبل علماء أوروبا. كذلك قاسوا محيط الأرض وسجلوا الاعتدالين، وقدروا حجم الكواكب وما بينها من مسافات قبل "جاليليو" و"كبلر" و"كوبرنيك"، وأضافوا إلى المعارف الفلكية الشيء الكثير، وهذا واضح عند علماء من أمثال البيروني والبتاني والفرغاني والكندي والخوارزمي والصوفي وغيرهم..

العلماء المسلمين ومناهج البحث العلمي

ويرجع كل ذلك إلى استلهم علماء المسلمين لروح حضارتهم التحريية والتي خالفت الروح اليونانية. يقول "جورج سارتون" أعظم مؤرخي العلم في القرن العشرين في اعترافه بفضل المسلمين على رواد المنهج العلمي الحديث: "عند نهاية القرن الثالث عشر، استعدت عقول بعض أعظم حكماء العالم الصيراني، منهم "ألبرت الكبير" و"روجر بيكون" و"ريمون لال" إلى الاعتراف بتفوق الثقافة الإسلامية، وربما كانت المأثرة الأساسية التي تمخض



عنها الجهد في العصور الوسطى هي تريب الروح التجريبية. وترجع هذه المأثرة بديا إلى جهد المسلمين حتى آخر القرن الثاني عشر ثم انتحلها النصارى".

هذه الروح التجريبية والتي تمثل "المنهج" تجسدت في "الاستقراء" (Induction) الذي أصبح حجر الزاوية في "المنهج العلمي" الحديث. ومن هنا فلم تعد قضية العلم عندهم قضية تأمل فلسفي أو استدلال منطقي ينطلق منهجيا من فكرة الاتساق الداخلي ويعتمد على قانون الهوية، ولكنها أصبحت قضية ملاحظة نشطة ومشاهدة واقعية وتجارب تجرى على مختلف الظواهر الجزئية، تعتمد على قرانين العلية وتستقرأ المواد الطبيعية والكونية فصل إلى التفسير العلمي الصحيح.

البيروني، العالم الطبيعي الموسوعي

وقد كان البيروني أمثودجا لذلك العالم التحريسي المسلم، الذي يعتمد الملاحظة والمشاهدة العلمية أساسا منهجيا ويتوسل بالاستقراء طريقا إلى معرفة قوانين الطبيعة ونواميس الكون. وتؤكد مؤلفاته المتنوعة ذلك، حيث كتب في كثير من العلوم الطبيعية، وبحث في مختلف الظواهر الكونية. فنجد مؤلفه "الصيدنة في الطب" يؤسس به علم الأدوية والعقاقير أو الفارماكولوجي، ونجده في كتابه "الجواهر في معرفة الجواهر" يؤسس لعلم المعادن والبلورات ويحدد الأوزان النوعية لكثير من الجواهر والأحجار والمعادن، ونجده في كتابه "القانون المسعودي" و"الآثار الباقية" يؤسس لكل من الرياضيات الفلكية وعلم الجيولوجيا والطبقات الرسوبية. وكما كان مؤسسا لعلم مقارنة الأديان ومنهج البحث العلمي التاريخي بكتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" نجده يؤسس بكتبه "تحديد نهايات الأماكن" و"أفراد المقال" و"التفهيم لأوائل التنجيم" لعلم المساحة أو الجيوديسيا. ويمكن بوضعه لقانون رياضي فلكي من قياس محيط الأرض.

واتبعت للبيروني، إضافة إلى علاقاته الشخصية مع العديد من الباحثين والحكماء المسلمين والنصارى والهندوس المعاصرين له، فرصة الاطلاع على العديد من النصوص العلمية اليونانية والبابلية والمناوية والزرادشتية القديمة. وفي الحقيقة لا يمكن النظر على كتاب "القانون المسعودي" على أنه مرجع للفلك الإسلامي فقط، بل هو مصدر أيضا لكثير من العلوم اليونانية والكلدانية الفلمية التي لم يعثر على نصوصها الأصلية. ثم إن البيروني كان قد قرأ أيضا عددا لا بأس به من المؤلفات التي لها علاقة "بالفلسفة

الطبيعية" والتاريخ إلى جانب معرفته الكاملة بالنصوص الفلكية- الرياضية كالمجسطي والعناصر ومختلف أشكال السند هند وغيرها من المصادر الهندوسية الأخرى. وتضمن كتاب "الجواهر في معرفة الجواهر" الذي هو من أكثر المصادر الإسلامية ثمولوجية في تناوله لعلم المعادن، أسماء علماء مسلمين مثل الكندي والجاحظ ومحمد زكريا الرازي وجابر بن حيان، وأسماء شخصيات أدبية وتاريخية وجغرافية مثل نصر بن يعقوب الدينوري وأبي العباس العماني، إضافة إلى أسماء مؤلفين يونان مثل أرسطو، وأرخميدس، وأبولونيوس، وديسكوريدس، وبلوتارخوس، وجالينوس، وبولس ديمقريطس، وأفلاطون، وهير فليس، ودوجينيس.

ويستشهد البيروني أيضا بالشعر العربي- الإسلامي والجاهلي- والمصادر الفارسية والهندية والسريانية والإسكندرية. وهو كثيرا ما يورد في كتاب "الجواهر" وغيره من المؤلفات نصربا من الكتب المقدسة كالعهد القديم والجديد والأفيستا والقرآن الكريم الذي كان -بالطبع- على معرفة كاملة به. وبالجملة، لم يدع البيروني علما من علوم عصره فيما خلا عددا ضئيلا منها إلا وتعرض له ودرسه. غير أنه وبسبب صدف الترجمة، لم يكن معروفا في الغرب اللاتيني أو لم يكن له ذات التأثير الذي كان لمعاصره ابن سينا. يقول الباحث سيد حسن نصر: "قد بقي البيروني سيد علوم الفلك والنجوم والجغرافية والرياضيات في العالم الإسلامي بلا منازع".

جيولوجي العصور الوسطى

إذا كان علم الجيولوجيا هو العلم الذي يبحث في الأرض من حيث نشأتها وهياكلها وتركيبها وما يحيطها وما يظهر عليها من أنواع الحياة وما أثر فيها من عوامل، فقد جاءت علوم الأرض الحديثة في أوروبا امتدادا لإسهامات المسلمين في هذا الحقل. وهو ما يظهر واضحا عند ليونارد دافنشي، وجوهان شغلر، ونيكولاس ومسينو، وروبرت هو، الذين اهتموا بتقسيم الصخور إلى طبقات لها معنى زمني، ووضعوا نظريات لتفسير نشأتها وتكوها. ولم تكن علوم الأرض أو الجيولوجيا منفصلة عند البيروني عن العلوم الطبيعية الأخرى كالفلك والجغرافيا والفيزياء، بل كانت مرتبطة بها، يتناولها خلال دراساته لتلك العلوم. لأن علم الجيولوجيا لم يتميز عن بقية هذه العلوم إلا حديثا.

وقد احتوت مؤلفات البيروني العلمية أبحاثا عميقة حول موضوع تكون القشرة الأرضية، وما طرأ على اليابسة والماء من





عند اليونان ولا منتشرة بين معاصريه. ويمكننا أن نعدده لذلك من رواد العلوم الجيولوجية، خاصة وأن هذه الأفكار العلمية الصائبة لم تنتشر في أوروبا وتأخذ طريقها إلى أبحاث علماء النهضة كليونارد دافنشي وأمثاله إلا بعد وفاة البيروني بعدة قرون. في كتابه "تحديد لمآلات الأماكن" يقول البيروني عن ظاهرات تلك الرسوبيات التي تكونت خلال العصور الجيولوجية الطويلة: "ولا نعلم من أحوالها إلا ما يشاهد من الآثار التي تحتاج في حصوصها إلى مدد طويلة وإن تناهت في الطرفين، كالجبال الشاخطة المتركة من الرضراض المسلس المختلفة الألوان المختلفة بالطين والرمل المتحجرين عليها". ثم يشرح لنا بفسر علمي دقيق العملية الجيولوجية التي تكونت عندها تلك الرسوبيات، مركزاً تفسيره على عوامل التعرية التي هي المؤثر الرئيس في تلك التكوينات التي تشكل على مر العصور البيئة الجغرافية للأرض. وهي عمليات الانضداد والانصدام وجران الماء الذي يسببه تحرك الرياح واحتكاكها، وقوة إذابة الماء وجرانه، وهي العوامل الأساسية في التعرية.

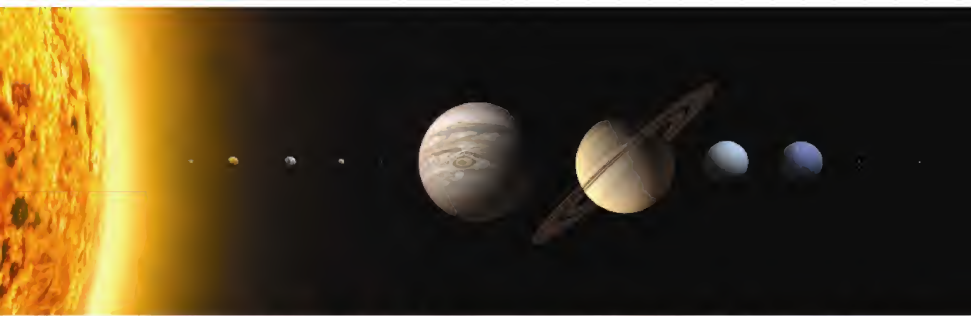
ثم يفسر لنا البيروني التراكمات الرسوبية التي تتكون على مر العصور تفسيراً علمياً قريباً ما نعلمه الآن من علم الرسوبيات (Sedimentology) من خلال كتابه السابق، ويشرح لنا بوضوح، أن تلك العمليات الجيولوجية تحتاج إلى أزمان طويلة جداً، كما أن كيفية تكونها ترويح في أساسها إلى تأثير الجاذبية من باطن الأرض على المكونات الخارجية للغلاف في القشرة الأرضية. ولا ينسى أن يبين تأثير التكوينات الرسوبية على عمارة الأرض أو ظهور الصحاري وما يعرف الآن بانحراف التربة وتصحر الأراضي الخصبة، مما يؤدي إلى سيطرة الصحراء وطغيانها على العمران والتربة الزراعية. كما يقدم لنا البيروني تفسيراً علمياً دقيقاً لتلك الظواهر الجيولوجية التي تتاب القشرة الأرضية، ويعطي تعليلاً صحيحاً لتكون البحار والبحيرات وظهورها واختفاؤها. وهذا يظهر واضحاً في تفسيره لأصل سهل الهندستان وتكونه.

تطورات خلال الأزمنة والأحقاب الجيولوجية المتطاولة. وكانت له نظريات في قدم الأرض وغيرها، وما اعتراها من ثورات وبراكين وزلازل وعوامل تعرية غيرت من وجهها الطبيعي على مر العصور. وهذه النظريات وتلك الآراء لم تكن معلومة في عصره أو سائدة في زمانه، وهي مما يُعد اليوم من دعائم علم الجيولوجيا. وقد أشار البيروني في كتابه "الجماهر في معرفة الجواهر" إلى أن "الحصاة قد ينجم عنها جريان الماء"، وتناول بالشرح والتحليل لتقطع الجبال بالجرفات وإسالة السيول إلى السفوح. كما أشار إلى تكون السهول الرسوبية وضرب لها أمثلة بأرض مصر وبراير السودان، وأما كانت بحراً ثم انحسر عنها البحر، حيث قال: "وبراير السودان كلها، فإنها في الأصل من حمولات السيول المنحدرة من جبال القمر والجبال الجنوبية عليه منكبة كانبكاس أرض مصر بعد أن كانت بحراً، وتلك الجبال مذهب وشديدة الشقوق". وقد سمى البيروني ظاهرة الترسب وانحسار ماء البحر "انكباساً" كما مر. وقد عدد أحد الباحثين المتخصصين في الجيولوجيا، العلوم التي تحتويها أبحاث البيروني الجيولوجية فشملت "علم التضاريس" و"علم الطبقات" و"كيمياء الأرض" و"المعادن والبلورات" و"الجيولوجيا التاريخية".

نظريات البيروني الجيولوجية

للبيروني نظريات في علم الطبقات والأزمان الجيولوجية، أو ما يطلقون عليه حديثاً "علم الطبقات" (Stratigraphy) و"علم الأحافير" (Paleontology) و"الجيولوجيا التاريخية" (Historical Geology). وتعتبر نظرياته في هذه العلوم من النظريات الحديثة، حيث إن له آراء صائبة حول موضوع تكوين القشرة الأرضية، وما طرأ على اليابسة والماء من تطورات وتغيرات خلال الأزمنة والأحقاب الجيولوجية المختلفة. ولم تكن هذه النظريات معروفة





رواسب الخشب والجشيش المخالفة لطبيعة ذلك المعدن نفسه. وما يذكره البيروني هنا هو تفسير علمي صحيح لا تخلو منه كتب الجيولوجيا في العصر الحديث.

ويبني البيروني دراسته للتغيرات الجيولوجية على ما حفظته طبقات الصخر من سجلات. فهو كثيرا ما يكتب حول التغيرات البطيئة للأحوال التي حفظت الصخور وآثارها. ولا نعلم من أحوالها إلا ما يشاهد من الآثار التي يحتاج في حصولها إلى مدد طويلة وإن تناهت في الطرفين كالجبال الشاسعة للتركة من الرضراض الملئس المختلفة الألوان المولتفة بالطين والرمل المتحجرين عليها. وكل تلك الأحوال بالضرورة ذوات أزمان مديدة غير مضبوطة الكمية.

ونظرا لدقة التغيرات، فقد تمكن خلال أسفاره المتعددة من مشاهدة عدة مناطق ذات تراكيب جيولوجية مختلفة. كما أدرك التغيرات الهائلة التي حدثت قبل خلق الإنسان وبعده وحتى الآن. حتى إنه لاحظ وجود طبقات التوائية مزاحة في بعض الجبال. وقد عزى ذلك إلى حركات باطنية اندفاعية حديثة. وهناك الكثير من مثل هذه الملاحظات المثيرة للاهتمام، إحداهما تدور حول اكتشافه للمستحاثات التي يعرفها -مثل إخوان الصفاء- بأنها بقايا حيوانات بحرية عاشت فيما مضى في الموضع الذي تحول الآن إلى يابسة. وكما يخبرنا عن ذلك: "وعلى مثله ينتقل البحر إلى البر والبر إلى البحر في أزمنة، إن كانت قبل كون الناس في العالم فغير معلومة، وكانت بعده فغير محفوظة لأن الأخبار تنقطع إذا طال عليها الأمر وبخاصة في الأشياء الكائنة جزءً بعد جزء وبحيث لا يفيض لها إلا الخواص".

فهذه بادية العرب وقد كانت بحرا فانكسر حتى أن آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض فإنها تبدي أطباقا من تراب ورمال ورضراض، ثم يوجد فيها من الخرف والزجاج والفظام ما يتمتع أن يحمل على دفن ذلك قاصدا إياها هناك، بل يخرج منها أحجار إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع وما

وهو تفسير علمي دقيق في نظر علماء الغرب، حيث يتصل بعلم التضاريس أو الجيومورفولوجيا، حيث كان في مكان هذا السهل -في نظر البيروني- قاع بحر، ثم اتخذت تتخلف فيه رواسب طمي حتى سوت منه سهلا.

كما يتناول البيروني ظاهرة الهوابط والصواعد ورواسب ماء البحر، حين يتناول تلك الرسوبيات المعدنية التي يجدها في مناطق انحسر عنها الماء، وبقيت فيها الرواسب معدنية متحجرة حلت محل الرواسب العضوية للكائنات البحرية. كما يحدثنا في كتابه "الصيدنة في الطب" عن أصل تحجر المعادن والتي كانت في نشأتها سائلة، ثم تجسدت حين يتحدث عن حجر "الدھنج" الذي أكثر ما يكون وجوده في معادن النحاس، كما يكون الزبرجد في معادن الذهب.

الثروات الجيولوجية

والبيروني كثيرا ما يتحدث عن الثروات الجيولوجية التي تنتاب القشرة الأرضية، وما كانت تفعله فيها من التواءات وارتفاعات وانخفاضات، كونت سلاسل الجبال، أو حفرت فجوات البحيرات، كما في بحيرات الأردن وبحيرات مصر. ويذكر البيروني كثيرا في مؤلفاته حقائق علم الجيولوجيا ونظرياته فيما يخص تكون الحفريات للكائنات الحية، سواء حفظ الكائن بجميع أجزائه، كحفريات النمل والبعض وبعض الحشرات والحشائش التي توجد متحجرة ومحفوظة في مادة الكهرمان، أو تكون بقايا الأجزاء الصلبة الهيكلية فقط كأصداف المرجان وعظام الحيوانات، أو تبقى مادة الحيوان الأصلي وتستبدل مادتها معدنية أخرى، أو تكون الحفريات أثرا لبقايا الكائن الحي في الصخور التي يعيش فيها، وعندما تتصلب تحفظ هذه الآثار.

أما ما يخص شرح عمليات التحفر بالتحجر (Petrifaction) والتحفر بالاستبدال المعدني، فنجد للبيروني إشارات كثيرة إلى أصول هذا العلم، حين يتحدث عن الأحجار الكريمة كالبلور الذي كان في أصله سائلا ثم تحجر لاحتماء كثير من مواده



يسمى بأذان السمك إما بقايا على حالها، وإما بالية قد تلاشت وبقي مكانها خلاه متشكلا بشكلها. كما يوجد بباب الأبواب على ساحل الحزر، ثم لا يذكر لذلك وقت معلوم ولا تاريخ البتة. ومن الملاحظات المتميزة للبيروني تلك التي تتعلق بتحديد طبيعة سهل الفانج في الهند حيث اكتشف أن هذا السهل هو من النوع الرسوبي. وبالرغم من تأكيده على الطبيعة التدرجية للعوامل المؤثرة في سطح الأرض، فإن البيروني يؤمن، مثل معظم علماء العصور الوسطى، بالجوانح التي تصيب الأرض من وقت لآخر. وناقش البيروني علاقة هذه الجوانح بتواتر التاريخ العام وقيام الدول وسقوطها فكتب يقول: "إن الآفات التي تنبأها (أي الأرض) - من فوق ومن تحت مختلفة في الكيفية وفي الكمية، وأنه ربما غشيها منها ما يفرط في إحداها أو كليهما، فلا ينفع معه حيلة ولا عنه مهرب واحتراس، فيأتي عليها ذلك كالطوفان المغرقة والرواجف المهلكة بالخشف أو التفرغق والتحريق بما يفور منها من المياه أو يرمي به من الصخور المحماة والرماد، ثم الصواعق والهدات والعواصف، ثم الأوبئة والأمراض والموتان وما أشبه ذلك.. فإذا خلت بقعة عريضة عن أمتها ثم انتعشت بعد هلكتها عند انكشاف تلك الآفة اجتمع إليها قوم متفرقون، كأمثال الوحوش المعتصمين قبل ذلك بالمنحاض ورؤوس الجبال، وتندمون متعاونين على الخضم، سواء كانوا من السباع أو كان من الأنس ومساعدين بعضهم بعضا على ترجية العيش في أمن وسرور إلى أن يكتروا فينبغص التنافس المرفوف عليهم يجناحي الغضب والخسدة طيبة عيشهم". وهكذا يمكننا استنتاج بأن هناك ترابطا وثيقا بين واقع المجتمع الإنساني وبين المحيط الكوني يشبه إلى حد كبير الترابط القائم بين الإنسان والعالم. وتقود مناقشة الأمور الجيولوجية بشكل طبيعي إلى دراسة التقسيمات الجغرافية للأرض. وما تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم الواردة ذكره في القرآن الكريم والمعروف عند كل من اليونان والفرس في فترة ما قبل الإسلام، إلا انعكاس لصورة الأفلاك السماوية السبعة على الأرض. ولم يكن ذلك اعتبارا بل عبر على الأصح عن حقيقة كونية معنية، مثله في ذلك مثل جميع جوانب الجغرافية المقدسة، ولا يختلف البيروني أحد أعظم جغرافي الإسلام، عن الكثير من معاصريه في تنبيه التقسيم السباعي للأقاليم. وقد اتبع في مصطلحاته التقسيم الفارسي القديم للعالم.

وفي سؤاله الرابع الذي وجهه إلى ابن سينا حول الطبيعيات،

يقدم البيروني سؤالاً حير الجيولوجيين المحدثين تماما، كما حير العديد من مؤرخي العصور الوسطى الطبيعيين. والسؤال هو "لماذا ذلك الربع من الأرض هو مكان الزراعة والعمران بينما يقي الربع الشمالي الآخر، وكذلك الربعين الجنوبيين غير مأهولة. بالرغم من أن القوانين الفلكية للربعين الجنوبيين تماثل تلك التي للربعين الشماليين؟". غير أنه يقر بوجود تناسق في تصميم العالم، إذ نراه يقول أنه "من الممكن، لا بل من المرجح، أن كل زوج من أرباع الأرض يشكّلان وحدة متماسكة ومتصلة أحدهما، هو القارة، والآخر هو المحيط". وقد أورد في كتابه "تحديد لهايات الأماكن" مخططا جمع فيه جغرافية العالم التي عرفها مسلمو العصور الوسطى في شكل واحد معقول.

يقول "ليرو بوب" إن من المستحيل أن يكتمل أي بحث في تاريخ علم المعادن (Mineralogy) دون الإقرار بمساهمة البيروني العظيمة، خاصة وأن البيروني سيتمكن من معرفة الوزن النوعي لعدد كبير من المعادن بدرجة عظيمة من الدقة، وقد أثبت معرفته التجريبية والعلمية في هذين الكتابين، أي كتب "الجواهر في معرفة الجواهر"، ورسالته في المعادن.

إيمانه بقوانين الطبيعة المطردة

ولا ننسى إيمان البيروني -وهو العالم الطبيعي الدقيق- بقوانين الطبيعة المطردة. فقد كان يؤمن بإمنا عميقا بوجود قوانين طبيعية ثابتة، قد بنها الله تعالى في الكون وجعل الخليفة تسير بمقتضاها وهي مسخرة في ذلك دائما لا تتخلف. وهو ما يتضح مثلا في قوله: "العلل التي ليست بأجسام كالأشياء التي يسميها الفلاسفة "الطبيعة" و"العقل" و"العلة الأولى" لا تنقل النظام إلى اللانظام، بل شأنها أن تنقل اللانظام إلى النظام، أو تحسك النظام على النظام". ولذلك يقول أحد المتخصصين في هذا العلم: "إن العلماء المسلمين قد أضافوا لعلوم الأرض مواد علمية وآراء جديدة في الظواهر الجيولوجية من قرون عديدة قبل "جيمس هاتون" و"وليم سميث" ورواد الجيولوجيا الغربية، وأن الباحث التأمّل لأقوال العلماء المسلمين مثل البيروني ولأقوال "سميث" و"جيمس هاتون" في علم الطبقات مثلا، يرى التقارب بين الرأيين، مما يعث على الشك في أن علوم المسلمين كانت بين أيدي الأوروبيين إبان نهضتهم العلمية". ■

(٤) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

الله

الطريق السريع المسلك والسالك

✦ د. د. عمار جبدل ✦

تَبْلَغُه المقصد المَدْعَى (المشيخة والقطب والمربي والمسلك)، لهذا يضطر أن يترجل في طريق سريع لأنه لا يملك من الخصال ما يَجُوزُ له نيل فضل الله في اكتساب مطية سريعة.

تُلمَس السعادةُ في الدارين من الطريق السريع المتميز عن سائر الطرق بمواصفات التجدد الذاتي المستمر المعبر عن الإيمان والإسلام والإحسان في الوقت نفسه، وذلك وفق الدلالات الاجتماعية المثمرة لتصرفات منضبطة بالشرع قابلة للمعانة.

طلب أحد السالكين من الإمام الرباني-محدد القرن الثاني عشر الهجري- طريقاً سريعاً في الاسترشاد، فقال الشيخ كلمته المشهورة: "وَحَدَّ القُبْلَةَ". ومعناها اجعل القرآن الكريم أستاذك الحقيقي، على قول الأستاذ بديع الزمان، الذي يقر في مقام آخر أن شعاع السنة المطهرة هو الإكسر النافذ. فالسنة المطهرة كافية ووافية لمن يتبغى الطريق السريع طريق النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها.

حدد الشارع الحكيم معالم الطريق السريع للعروج إلى رباط العبودية لله تعالى، المسلك المحقق للمعاني الإنسانية المعاني في التصرفات

قولاً وعملاً وخلقاً؛ فليست كلماتٍ للتباهي في المحالِّ واستعراض ألفاظ وفقراتٍ مستتلة من كلام الغير دون إسنادها إلى أهلها -وفي هذا التصرف ما فيه من الناحية الأخلاقية-، لأجل ابتزاز أهل الجاه والمال المتعلقين بأهل الفضل بالتماس مع أهلهم -أهل الفضل- كأن التماس بهم مصيدة لأهل الفضل والمتعلقين بهم. فكهم من متماس مع أهل الفضل لا فضل له ولا فضيلة، يُعرف تصنُّعُه أقربُّ الناس إليه، وخاصة في الأماكن التي لا يتقن فيها (الأسرة، الجيران، الإخوة، والطلبة، من هم تحت سلطنته...) رغبة في الهيمنة على بضائر وأبصار الملتفتين طمعاً في رغب إضافي أو وظيف.

معلوم أن شخصاً بالمواصفات الآنف ذكرها يُعدَّم المطية التي

ح

مميزات الطريق السريع

يتميز الطريق السريع بانتظام الموجودات، وهو طريق حري بأن يكون أساس النظرة الإسلامية والإيمانية والإحسانية للكون في عناصره المادية والمعنوية. فيعم التصور والتعامل الإحساني العوالم كلها، وهو -زيادة إلى ما سلف- طريق الفطرة واليسر والواقعية، فليس طريقاً ثخينة. ولهذا لا تعقيد فيه، طريق قصير واضح لا يزيغ عنه إلا هالك، جالب للسعادتين الدنيوية والأخروية..

جامع بين القلب والعقل، مؤسس لفكرة التمهيد والمراجعة المستمرة للمكاسب الروحية والمعرفية والعملية على حد سواء. فليس من مسالكه إسلام القلوب والعقول لآخرين، إنما إسلامها لله تعالى، ونحوّت له هذه الصفة استحضار المضامين الاجتماعية للإحسان. معرفة الطريق السريع لا يجدي نفعاً ما لم يكن السالك راكباً مطية وقردها العجز والفقر والشفقة والتفكير. ولا يذهبن بك سوء الفهم إلى الخطأ؛ فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك كله أمام الله سبحانه، وليس إظهاره أمام

الناس، كما قال الأستاذ بديع الزمان: "الإحساس بالعجز مفتاح رئيس لفعالية العبادة في حياة المؤمن، وهي إضافة إلى ذلك أساس الدعاء، واكتشاف الإنسان ذاته العاجزة".

العجز بمنزلة عن الإيمان موت مستمر وداء ملازم، علاجه وباعث الحياة فيه بإذن الله الإيمان. ذلك أن أقصر طريق لبلوغ ذلك العلاج هو الإطال من نافذتي "العجز والفقر" اللتين تفتحان بتزويق المرض المادي لحجاب الغفلة، واللتين تجلب الإنسان عليهما. يؤسس العجز والفقر في الطريق السريع للشفقة على خلق الله، وكلما تزايدت تبسّط الروح، وتدفّع إلى الاستكثار من الخير، وينعش غورها خدمة البشر وتدفّع إلى التعاون والتعارف؛ وأما الشفقة الناشئة من الغفلة والمبينة على توهم المالكية فيتزايد بها نقبض الروح ويتألم القلب.

ترتبط الشفقة القلب بالله سبحانه ليوصل صاحبه إلى الله حل

وعلا بأقصر طريق وأصفى شكل، وبلا مشكلات، مؤسساً على التفكير الإيماني؛ فالإنسان بالتفكير المتعبد يصبح إنساناً حقاً، يذنب الغفلة به ويظهر الكون أمام بصره وبصيرته شاهداً واحداً وحداً دالاً على حقيقة تعرف بوحدة الشهود في الدلالة على الطريق السريع. الطريق السريع مسلك قصير وسبيل سوي، بشرط تزود راحلة (قلب) السالك بوقود العجز الموصل إلى "المحبوبة" بطريق العبودية، والفقر الموصل إلى اسم الله "الرحمن"، والشفقة الموصلة إلى اسم الله "الرحيم"، والتفكير الموصل السالك إلى اسم الله "الحكيم". قال بديع الزمان مردداً لما قاله أحد الصالحين: "لقد رأيت أحد المتقين من أهل القلب في زاوية "التكية" يراول السير والسلوك، ولكن بعد مضي بضعة أيام شاهدته في المدرسة بين طلاب العلوم الشرعية، فسألته: لم تركت الزاوية التي تفيض الأنوار وأتيت إلى هذه المدرسة؟ قال: هؤلاء النجباء ذوو الهمم العالية يسعون لإنقاذ الآخرين مع إنقاذهم لأنفسهم بينما أولئك يسعون لإنقاذ أنفسهم وحدها إن وُفقوا إليها. فالتجابه وعلو الهمّة



لدى هؤلاء والفضيلة والهمّة عندهم"، وهؤلاء يصدق فيهم ما قاله أستاذنا محمد الهادي الحسين نقلاً عن العلامة محمد المبارك في قولته المشهورة: "تصويف السلفية وتسليف الصوفية"، بشرط أن يكون لكل منهما مطية (قلب) يسعفه في نيل المراد، لأن من افتقد الراحلة لم يبلغ المراد مهما بالغ في مدحه، ولا يمكن أن يرى عليه التواضع والتلطّف الحقيقي المؤسس على الشفقة بالخلق وعلى رأسهم المخالفين في الملة فضلاً عن الموالفين فيها، وإن تحلى بها فهي لضرورات اقتضتها حيلة التعلق بالدنيا بعنوان الآخرة، مخالفاً بما مسلك الصالحين، في قولهم: "الحيلة في ترك الحيل". ■

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.

القرآن... نوره في سماء القلوب يتوهج، وعليه الأرواح تحوم، وبه تهتدي... حقٌ وحقيقةٌ كله، لا يُسْبَرُ غوزه، ولا يدرك وشغه... مَنْ يعشه يز جمال الوجود في زهرة، وطوفان الأرض في قطرة..

كلمات الله في معركة السلام

أ.د. فريد الأنصاري *

لا تحرير للأمة اليوم في معركة هذا العصر إلا بالقرآن، لأن طبيعة المعركة الجديدة قائمة على "الكلمة"، والقرآن العظيم هو الكلام القاهر فوق كل كلام. ولكن بعد أن نفهم السؤال الإشكالي: ما حقيقة "الكلمة"، وما دورها في معركة العصر الجديد؟

إن "الكلام" ليس "قولا" وحسب؛ إذ "القول" دال على كل ملفوظ، سواء أفاد معنى أم لم يفده، كما هو معلوم من تعريفات النحاة، بينما "الكلام" لا يكون إلا لفظا مفيدا لمقصود مراد للمتكلم، سواء أفاد خيرا أم أفاد شرا، على وزن قول ابن مالك: كلامنا لفظ مفيدٌ كاستقم. ومن هنا نطلق من هذا التقعيد النحوي المدرسي البسيط لنحزم بعد ذلك بأن الكلام - على هذا المعنى الموصل في قواعد العربية - لا يكون إلا فعلا جاريا في الواقع، وحدثا جاليا لأثر في التاريخ. إن الكلمة - أي كلمة - إما هي فعل من الأفعال، هذا على المستوى الوجودي. وتأمل كيف أن الخطاب مهما يصدر من متتبع فإنه لابد يؤثر في الواقع ولو على المستوى النفسي ابتداء، ثم يكون له بعد ذلك أثر فعلي. وأقل الأثر أن يعود على صاحبه بخير أو بالشر. ولا يتصور في الواقع والعادة الجارية في الخلق كلام بلا أثر مطلقا ألبتة. وهذا يبدأ من مستوى الخلق والإنشاء والتكوين، مما ينسب إلى الله ﷻ من الأفعال والأقدار، إلى مستوى الفعل الإنساني والإنجاز البشري في الواقع والتاريخ.

فنبال الأول: قول الله تعالى فيما عرّف به حقيقة نبيه عيسى عليه السلام، واصفا إياه بأنه ﴿كَلِمَتُهُ﴾ قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (نساء: ١٧١). فكان عيسى ههنا هو "كلمة الله" جل علاه، أي إنه راجع إلى أمره القُدري التكويني. إنه إذن تَخَلَّقَ اللهُ لأن "الكلمة" راجعة إلى فعله تعالى المتعلق بتدبير شؤون الربوبية خلقا

والعقل المجرد عن معطيات الوحي، ولا يمكن لمثل تلك الموازين إلا أن تكون "صورية" فعلا كما عبروا هم أنفسهم. فإلى أي حد تطابق الصورة الحقيقية؟ تلك هي المشكلة. ومن هنا فحد "الخبر" عندهم هو أن جمع المقصود فإنه لا يمنع دخول غيره فيه، أي معنى "الإنشاء"؛ أريت لو أن شخصا نادى غيره، أو أمره، أو نهاه، وهو لا يقصد ذلك ألا يكون كاذبا؟ بلى والله! وإنما الكذب مخالفة العبارة لمقتضى الواقع، وهذا منه؛ لأن النادى، أو الداعي، أو النادب، أو المستغث، أو الأمر، أو الناهي.. إلى آخر ما صنفوه في معنى الإنشاء؛ كل ذلك إذا لم يصادف إرادة في نفس المتكلم وقصدا فهو كذبٌ محض. فالإنشاء إذن -هذا المعنى الوجودي- يحتمل الصدق والكذب أيضا. وهل يتوجه المتوجه لغير وُجُع؟ وهل يستغث المستغث لغير فرْع؟ فإن قصد به معنى آخر من مجاز وغيره، كان ذلك المعنى الجديد المعدول إليه هو أساس الصدق والكذب بعد ذلك، وإنما العبرة بالخطاب قصد المتكلم وإرادته. فلا شيء من الإنشاء إلا وهو يحتمل الصدق والكذب أيضا.

حظ اللسان في الأحكام

وأزعم أنه لا شيء من الكلام الطبيعي للإنسان إلا وهو يحتملها، ومن هنا قول الله تعالى الجامع لكل ذلك: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨).^(١) وقوله تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاسِبًا وَلَا يَظُنُّهُمْ رَبُّكَ أَحْلَا﴾ (الكهف: ٤٩). ويدخل في ذلك قطعا كل ما تلفظوا به من قول. ولذلك فقد نال اللسان الخط الأوفر في الاعتبار في أحكام الشريعة؛ فكانت العقود كلها سواء كانت عقود الإيمان والإسلام، من بيعه شرعية، أو تعهد ومعاودة، أو نكاح أو طلاق، أو كانت من المصارفات المالية من بيع وإيجارات وأكرية وغير ذلك مما يمكن أن يتصوره الذهن كلها إنما هي عند التحقيق "كلام" وليست مجرد لعب أو هو من الأقوال، لأنها قائمة على معنى "مفيد"، أي مقصود مراد للمتخاطبين؛ بما فيها من إيجاب وقبول وما جرى مجراها من معاني التراضي والإقرار. ومن هنا قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَقْرَبُوا بِالْعُقُودِ﴾ (البقرة: ٢١)، وقوله سبحانه في سياق بيان أن الإنسان محاسب على كل ما يصدر منه من الأقوال، مما أوردناه قبل قليل: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨). وفي

وتقديره وقَسِيرٌ مَيَّةٌ. وهذا المعنى شامل في كل خلق أو تصرف إلهي، وفي كل قضاء وقدر. لا شيء من ذلك كله يخرج عن "كلمة الله". وما يدل عليه أيضا أن "الكلمة" في القرآن أمرٌ واقعٌ حتما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِنَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (هود: ١١٠)، وقوله سبحانه: ﴿وَوَسَّاتُ كَلِمَةً رَبِّكَ لِأَتْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود: ١١٩). ومثل هذا في القرآن كثير لمن شاء أن يتبعه. فكل ذلك ونحوه مما تضمن ضمنية "كلمة رَبِّكَ" دال على معاني الخلق والإنشاء والتكوين والتصيير، وسائر أفعال القضاء والقدر الإلهيين. وليست "الكلمة" قولاً يقال لمجرد القول وكفى، بل هي إنجاز حتمي لا يتخلف توقيعه أبدا. فمتى قيلت "الكلمة" -هذا السياق- كان معناه أنها فعلت. ومن هنا لم تخرج "كلمة الله" عموما عن معنى فعل الله جل وعلا، وهو ﴿قُلْ لَا يَخْلِفُ الْقَوْلُ وَلَا الْمِعَادُ﴾.

أساس الناطقية والاستخلاف

ومثال الثاني قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١). فالأسماء -مهما اختلفت في تفسير معناها- فإنه لا اختلاف في أنها "كلام" بالمعنى الشرعي والوجودي للكلمة، ولا يمكن أبدا أن تصور "الأسماء" على أنها لغو أو عبث، فهي أساس الناطقية التي فطر عليها الإنسان، والتي تُشكل جوهرها أساسا من ماهيته الوجودية ووظيفته الكونية، والتي كانت -بعد ذلك- أساس الاستخلاف له في الأرض. ومثلهما قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عُلْمَهُ الْيَبَانَ﴾ (الرحم: ٣٠). ومن هنا كانت مسؤوليته عما يتكلم به كبيرة جدا، وهي مسؤولية لا تخرج عن عموم الأمانة التي أنيطت بالإنسان في قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ (الأحزاب: ٧٢). فالكلام البشري كله محمى عليه كلمة كلمة، يستوي في ذلك إنشاؤه وغيره، لأنه كله يوزن بميزان التحقيق بين الصدق والكذب.

وعليه؛ فتعريف البلاغيين "الخبر" في الدرس البلاغي بأنه "ما احتمل الصدق والكذب" -برعهم- تعريف غير مانع أبدا، بالمعنى الوجودي لكلمة "خبر"، لا بالمعنى اللغوي العادي. فتعاريف البلاغيين راجعة إلى موازين المنطق الأرسطي الصوري، وقد عُلِّمَ ما فيه من خلل منهجي في تحديد المفاهيم والتصورات، إذ هو قائم على تحديد الماهيات بمحدود عقليات خاضعة لمنطق

التجارة وسائر المصارفات المالية والاجتماعية الخيرية والكلية... إلى كل طبائع العمران ونجليات الحضارة البشرية، إلى كل ما يمتد إليه ذلك من فقدان توازن الحياة الإنسانية والبيئية والكرمية.

اللغة وصناعة الحياة

إن اللغة تصنع الحياة أو تدمرها. ومن هنا كانت مسؤولية الكلمة في الإسلام حسيمة جدا، والإعلام اليوم هذا الذي يسمونه "السلطة الرابعة" ليس في واقع الأمر إلا السلطة الأولى، لأن المتسلط على الخلق، الحاكم أمرهم بالحق أو بالباطل، إنما وصل إلى متبغاه من التسلط والتحكم بالكلمة. فحينئذ عندما يكون الأسلوب المتبع في التسلط قهريا فلما صنع الطاغية أدوات قهره وتجيره في البداية بالكلمة، ولا شيء يبدأ قبل الكلمة، فبدء الوجود والخلق والتكوين في القرآن الكريم إنما هو كلمة، إنها كلمته ﷻ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ قال جل شأنه: ﴿وَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ نَبَذًا ۚ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدَأُ الْمَكْرُوتَ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (س: ٨١-٨٣).

إن الكلمة هي التي تصنع الصورة وتنحتها، بل هي جوهرها وحقيقتها؛ فلا يغرنك أن الإعلام اليوم صار يتركز أساسا على الصورة، فلما هذه -رغم خطورتها- بنت تلك في نهاية المطاف. ولولا الكلمات لما كانت الصور في الوجود أصلا. أضف إلى ذلك أن الصورة تُعْرَضُ حينما تُعْرَضُ في العادة الغالبة مسبقةً بالكلمة أو مقرونة بها أو ملحقه بها أو كل ذلك جميعا. فلا تأتي إذن إلا من خلالها. وحينما تتوهم أننا نتلقى صوراً بغير كلمات، فإنما هي لعبة الكلمة المتخفية خلف الصورة. إنك لا تسمعها، نعم؛ ولكنها تتدفق إلى خوارطك في صمت، وتسكن اعتقادك بقوة. ومن ذا الذي قال إن الكلمة هي الصوت فقط؟ إنما الكلمة "مفهوم" يتوصل به الإنسان عبر اللغة الطبيعية، الصوتية أو الإشارية أو التصويرية أو السيميائية، إلى غير ذلك مما في الوجود من رموز وأشكال نصبت للدلالة على معنى. كل ذلك كلام.

الكلمة هي الوجود

إن الكلمة هي الوجود وما سواها صُور. ومن هنا ترى عمق الآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١)؛ فانظر -في ضوء ذلك- إلى هذا الكلام الإلهي العظيم، كم هو فعلا يضرب في

الحديث: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوي بها في جهنم" (رواه البخاري). ومن ثم لم يكن جد رسول الله ﷺ إلا حقا وصدقا، ولم يكن فيه كذب قط، حاشاه، عليه الصلاة والسلام.

إن الكلام مؤثر جدا في إنتاج الفعل الإنساني بل هو عين الفعل الإنساني، ولا شيء من فعله إلا وهو حاصل للكلام مباشرة أو نتيجة أو توجيه أو تفاعلا، وإنما بدء التكليف الإلهي للإنسان كلمة، وآخره كلمة، منذ قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩)، إلى أن علمته ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ إلى أن أنزل عليه "كلامه" القرآن الكريم.

وأول الوزن وزن الكلام

فالذي لا يعبر للكلام -أي كلام- الخطورة التي يستحقها فهو جاهل بحقائق الدين وحقائق الوجود معا. وكثير من العقوبات في الإسلام والحدود والتعازير والآثام... إلخ إنما ترتبت شرعا عن مجرد "كلام" يتكلم به الإنسان باطلا، بدءا بكلمة الكفر إلى كلمة القذف، إلى ما شابه ذلك من كلمات الغيبة والنميمة وعبارات السخرية والتنايز بالألقاب وهلم جرا.

كما أن بدء الخير كله "كلمة" انطلاقا من كلمة الإخلاص: "لا إله إلا الله"، وما يتبعها من "شهادة أن محمدا رسول الله"، إلى أبسط كلمات الإيمان والإحسان، كإفشاء السلام، وتشميت العاطس، وإرشاد السائل... وما بين هذا وذاك من كليات الكلام وجزئياته؛ فإنه جميعا يُؤَوَّلُ -في النهاية- إلى بناء عمران الحياة الإنسانية، القائمة على العدل والسلام؛ لأن ذلك كله هو الذي ينتج فعل الخير بمعناه المطلق، ويحقق غاية الوجود البشري في الأرض. ومن هنا كانت أول نعمة آمن الله بها على الإنسان بعد نعمة الخلق أنه علمه البيان. ولذلك كان القرآن بين يديه -وهو كلام الله- الأداة الكلامية الفاعلة لإقامة الحياة في الأرض بالقسط والميزان. فبدئَ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَحْسَبَانِ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ١-٩)، وأول الوزن وزن الكلام، الذي هو حقيقة "البيان"، فإذا خسر خسرت كل الموازين بعده بدءا بموازين السياسة -بمعناها العام- وما تتضمنه من موازين الإدارة والاقتصاد، إلى موازين

عمق الحقيقه، وإلى أي حد هو يوغل في مجاهيل الوجود...

إن الإعلام اليوم كما كان من قبل في التاريخ -رغم اختلاف الأشكال والتجليات- ليعتبر أعظم وسائل التحكم، وأرعب أدوات الصراع الحضاري، وأقوى آليات التدافع العمراني في الأرض. إن الذين فهِموا الناس في الأرض عبر التاريخ لم يكونوا بشرا فوق البشر في أبدانهم ولا في عقولهم، ولا كانوا "ألهة" في واقع الأمر، وإنما هم "متكلمون" فقط. أسسوا أسطورة من الكلام في أذهان الناس وسحروهم بها، أو ورثوا وصيدا كلاميا عن آباءهم وأجدادهم واستمروا في إنتاجه وتجديده حتى تعيش الأسطورة في شعوبهم إلى الأبد؛ فكان منهم "ابن الشمس" و"حفيد الرب"، و"وكيل الآلهة"، وغير ذلك من سائر أنواع الكلام مما يدخل في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَوْا فَلَمَّا أَفَرُّوا سَحَرُوا أَغْنَيْنِ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الاعراف: ١١٦).

وما كان طغيان فرعون في الأرض واستئلال أهلها إلا ما بعد أن أوهمهم بأنه هو ربه الأعلى؛ فلم يكن يريهم إلا ما يرى ﴿فَحَسِبْ فَتَادَى أَفَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (الاعراف: ٢٣-٢٤) ومن هنا لما خالفة قائل الحق من رجاله نطق بقوة فقال، كما حكى الله تعالى عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (اعراف: ٢٥). فكان بذلك مثالا لكل طغيان وتآمر؛ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المص: ٤).

إنه قهر القوة والسلطان الباطل، الذي يصنعه -فقط- سحر الكلام. وانظر إن شئت إلى هذا البيان السحري الرهيب الذي ألغاه فرعون على قومه من بعد ما زلزلت عرشه آيات موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۚ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يُكَادُ يَنْبَأُ ۚ فَلَوْلَا آفَتِي عَلَيْهِ سُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَايِكَةُ مُقَرَّرِينَ ۚ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الاعراف: ٥١-٥٤). وتأمل جدا ما أعقب الله به خطاب فرعون: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فهو إما استخف في الواقع عقولهم.

ولقد قرأت قصة طريفة مترجمة عن الكتابة الفرعونية القديمة رواها أحد أطباء فرعون. وذلك أنه تسلط ذات يوم على أحد الأغنياء فأراد أن ينتزع منه ضيعته، فلما أبى أن يتنازل عنها نكل

به فرعون تنكيلا، قطع أيديه وأرجله من خلاف، وألقاه على حافة الطريق، فصادف أن كان الطبيب مارا بعربته فرجده بين في الظلام، فلما عرفه رَقَّى لحاله وحمله إلى بيته، ثم عاجله من آثار جروح البتر. ثم انقطعت صلته به بعد ذلك إلى أن مات فرعون. ولما كان يوم مراسم التحنيط والدفن على -عادة قلعاء المصريين- والكاهن يلقي كلماته في رثاء فرعون، بما يصيغه عليه من رداء الربوبية المزيفة والألوهية المدعاة والعظمة المكتوبة، ويذكر من شيمه ما لا يقبل للبشر به، إذا بالطبيب يجرد من بين الحاضرين الرجل الغني الذي نكل به فرعون من قبل، وقطع أيديه وأرجله من خلاف، وجده يبكي بحرارة ويقول: ما كنت أعلم أن فرعون كان إلها مقدسا إلى هذا الحد، وكأنا يبكي ندما على ما فرط في جنب فرعون، ولم يكن له من الطائعين ومن عباده الصغارين. إن الإنسان لما يتوهم أنه مغلوب على أمره، أو أنه لا يستحق أن يكون حرا يخضع بصورة تلقائية لمن غلبه هذه الأكلوبة.

من هنا كانت معجزة هذا العصر هي القرآن، القرآن بما ملكه من قوة خارقة في تدمير الإنسان من عبودية الشهوات التي تسقله إلى التراب، وتخلي عليه تقديس الحياة الفانية، وتخضع لمن يهدده بالقتل والتشريد فيها. القرآن بما ملكه من سلطان رباني على النفوس يجعلها تبصر حقيقة أنه لا إله إلا الله الواحد القهار حركة حية أبدية في الكون وفي التاريخ، وأن كل استكبار من دونه هو محض افتراء وهراء. القرآن بما له من خاصية التحويل الوجداني العميق لمسار الإنسان؛ من جرح جزئي ضئيل يلور في فلق قصير من متاع الدنيا الشهوائي؛ إلى كائن كوني كبير يدور في فلق العمق لمسار الإنسان؛ في سيره العظيم إلى الله.. حيث يرى بعين القرآن واستعلاء الإيمان كيف أن كيد الشيطان كان ضعيفا حق ضعيف، وكيف أن المعركة كونيّة، بقودها الله رب العالمين. ■

(٥) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.

الهوامش

(٦) قوله تعالى: ﴿مَّا تَلَقَّيْتُمْ قَوْلِي إِلَّا لَدَيْكُمْ رَبِّبْتُ عَلَيْكُمْ﴾ (١٨: ٣) هو من العام الذي أريد به الخصوص، إذ غلب في الدين أن القول غير المبني على قصد لا بدخل في دائرة المحصى على ابن آدم، ولذلك فاقول المقصود هنا هو الكلام الملقب قصداً ومعنى.

أَنْتَ لِلْإِحْسَانِ أَهْلٌ

﴿أنس إبراهيم الدغيم﴾

تُبَّ عَلَى قَلْبِي فَإِنِّي
طالما أنأى وتدنو
كلّما جئت إلَيَا
وسمعتُ الرّوحَ تشدو
ما شدا القمريُّ إلّا
ليس "قيساً" كلُّ من لم
كم تجلّيت عليّ
قائلًا لي في عتابٍ
كلّما النور تجلّى
طار قلبي في سنّاهُ
كلّما آنستُ نارا
جذوة تحيي فؤادي
زادَ يا مولاي وجدي
لا تدعني يا حيي
يا حييًّا لا يراني
فاحفظِ اللَّهُمَّ نفسي
كلُّ ما أبغيه وصلّ
أكبرُ الآمالِ عندي
بين بُعدي واقترابي
إنّ تكنْ حسي فإنّي
غلقتُ كلَّ المسالكِ
قلْتُ يا مولاي خُذني
كلُّ ما أخشاهُ قربُ
في طويّات اللَّيالي
أغنني يا ربُّ بالحُسنى
أَنْتَ لِلْإِحْسَانِ أَهْلٌ

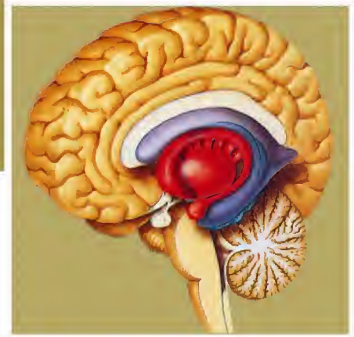
غارِقٌ في حسنِ طَيِّ
ففساك اليوم تُدني
عاد قفْرُ القلبِ رِيّا
(طلع البدرُ عليّا)
هاجَ دمعي فاستهلا
يحترقُ في نارٍ "ليلي"
واحتواني منك نورُ
(يا حييًّا لا يزورُ)
قابَ قلبي وتدلّني
هاثفاً أهلاً وسهلاً
طار نحو التّور قلبي
إنّ تكنْ من طُورِ ربّي
من تسايحي وحدي
بين إقبالٍ وصَدِّ
حيث يرجو أنّ أكونَ
من ضلالٍ وفنونَ
منك يُدنيّني إلَيْكَ
أنّ أرى بينَ يديكَ
ما يشاءُ العاذلونَ
غالبٌ في كلّ حينٍ
غيرَ بابٍ ما يزالُ
قال يا عدي تعالُ
منك يُتسفيني أني
واحتراقي وحيي
في وجمّلي بفضلِكَ
وأنا من بعضِ أهلكُ

(١) شاعر سوري.

تعزف إلى ذاتك، ويتورها استتر، فإن عرفتها عرفت ربك... أما سيئو
الحظ، فلا أعماقهم لمساوا، ولا جواهرهم أدركوا، ولا ربههم عرفوا...
مثلهم كممثل حفال على ظهره كنز ينوء بحمله لكنه لا يعرف قيمة
ما يحمله... فقيرا يبقى وتعيسا يظل وشقيا يموت.

...

الجهاز العصبي يتكلم



أ.د. عرفان يلماز *

عزيزي عبد الله...

ع

ساق الدماغ. وكما أن المركز يكون أهم شيء في جميع الأنظمة،
فكذلك المركز العصبي في جسمك الذي يتكون من فصي الدماغ
والخيخ وساق المخ مهم جدا. وبأني بعد ذلك في الأهمية الحبل
الشوكي الذي يعتبر أيضا من النظام المركزي للجهاز العصبي،
ولكنه لا يوجد داخل القحف، بل ضمن القناة الداخلية للسلسلة
الفقرية. وإذا أصاب الحبل الشوكي أي ضرر فهذا يكون مهما،
لقربه من المركز العصبي. وأي ضرر أو حرج يصيب الأقسام
المشكونة من الأعصاب الخارجة من المركز إلى الخارج يؤدي إما إلى
شلل أو إلى عطل في وظيفتها، ولكنه لا يؤدي إلى خطر فقد الحياة.

أرقام مذهلة

عزيزي عبد الله... والآن سأعطيك بعض الأرقام التي ستذهلك؛
إن مجموع طول الشرايين الدموية يبلغ ١٢٠ ألف كم (أي يبلغ
هذا الطول ما يكفي للدوران حول محيط الكرة الأرضية ثلاث
مرات)، بينما يبلغ مجموع طول الأعصاب عندي ٧٨٠,٠٠٠
كم، وهذا الطول يبلغ ضعف المسافة بين الأرض والقمر.
و٤٠٠,٠٠٠ كم من هذا الطول هو مجموع طول الأعصاب
المنتشرة في أجزاء الجسم. أما الباقي (أي ٣٦٨,٠٠٠ كم)
فهو مجموع الأعصاب العائدة إلى المركز العصبي. ويقرب عدد

أنا من أروع الأنظمة والأعضاء التي شرحت
لك نفسها؛ فأنا الذي أؤمن الارتباط بين جميع
الأنظمة والأعضاء لتكمل وظائفها. فكما تنتشر الأوعية الدموية
في جميع أجزاء الجسم لنقل الأكسجين؛ كذلك أقوم أنا بتغطية
جميع أجزاء جسمك كشبكة لكي تكون على علم بكل ما
يحدث. وإذا أصبت بأي خلل أو مرض في أي عضو داخلي قمت
بإحبارك حالا، بل اجتثك على السعي للعلاج.

"والنظام العصبي" شبكة من الخلايا العصبية، ولكن هذه
الشبكة مخلوقة ومرتبطة بشكل معقد جدا. فأهم المراكز الرئيسية
موضوعة داخل القحف قريبة من بعضها البعض على شكل كتل
كبيرة. أما امتدادات النظام العصبي والمراكز الفرعية الأخرى
فمنتشرة وموضوعة في مناطق مختلفة من الجسم.
ولكي تفهم هذا النظام بشكل أسهل وأفضل فمن المفيد
تقسيمه إلى قسمين. فالقسم الأول هو المركز العصبي الذي
يتكون من المهاد البصري، وما تحت المهاد البصري، والخيخ،
والنخاع الشوكي. أما القسم الآخر فهو النظام العصبي المحيط
والشبيهة بكوابل الكابلات الضوئية.

والدماغ يتكون من قسمين كرويين كبيرين، بالإضافة إلى

المخيخ

هو المركز الذي يَؤمّن التوازن وتَناعُم الحركات دون أي خطأ أو انحراف. علاوة على أن هذا القسم لا يملك شعورا إراديا، فإن تغيير وظائفه بشكل إرادي غير ممكن. إن بَصَلَة الحبل الشوكي (النخاع المستطيل) التي تشبه الهرم تصل القسم الأوسط من الدماغ. وهي تشكّل مع جسر "فارول" ساقَ الدماغ الذي يدخل من الثقب الخلفي الموجود في القحف إلى السلسلة الفقرية. توجد هنا مراكز عديدة تقوم بضبط نبض القلب وتنظيم التنفس وضبط فترات الهضم وغيرها من الفعاليات المستقلة للأعصاب. إن السيطرة على ردود الفعل، وتنظيم الجوّ الداخلي للأعضاء والسيطرة على الحركات تكون بالمخيخ، وترتيب الأحاسيس الآتية من الأعضاء الداخلية والسيطرة على بعض الوظائف المهمة كالانفعالات والنوم يتم بالاستعانة بالمهاد البصري.

المهاد البصري

يقع المهاد البصري بين بَصَلَة الحبل الشوكي وفصّي الدماغ، ويقوم بمهمة مثل مهمة مَحْوَلَة إِيّاه القطارات في السكك الحديدية أو مهمة المحطات الثانوية. وتقوم هذه المنطقة بجمع كل التنبيهات الآتية إليها من الحواس ما عدا الشم، وتنقل المعلومات إلى "القشرة الدماغية العلوية" لكي تنعكس إلى المستوى الشعوري، مثل التمييز بين الإحساس باللمس والألم والأصوات حيث يتم تقييم هذه الأحاسيس بشكل شعوري. ويُعتَقَد أنه يقوم أيضا بتنظيم حالات الصحو واليقظة والنوم، وأنه يلعب دورا في التغيرات الشعورية التي تظهر.

ما تحت المهاد البصري

هو مركز مهم يقع تحت المهاد البصري ويقوم بالسيطرة على الأحاسيس الجنسية والألام ومشاعر الاستحسان والجوع والظمأ وضغط الدم وحرارة الجسم والعديد من وظائف الأعضاء الداخلية. وله وظيفة هامة في تنظيم إفراز الهرمونات. والألياف العصبية المتشابكة التي تأتي إلى هذا المركز من فصّ الشم عُندي ومن المهاد البصري ومن فصّ الجهة تصل إلى المراكز التي تسيطر على الفعاليات المستقلة وإلى البنية الشبكية الشكل.

المعلومات الواصلة من خلية واحدة مائتي ألف معلومة. وهذا يعني أن مئات الآلاف بل الملايين من المعلومات تمر من داخل خليتي من المركز إلى المحيط، ومن المحيط إلى المركز. وأنا أملك ثلاثين مليار خلية؛ عشرة مليارات منها في محيط القشرة، وعشرة مليارات تقريبا منها في قشرة المخيخ، أما الباقي فيشكل أجزائي الأخرى. ومن أجل الإيضاح أقول: يملك دماغ البعوض مائة ألف خلية، ودماغ الفأر عشرة ملايين خلية. ولكي يتم تبادل المعلومات بين خلاياي البالغة ثلاثين مليار خلية هناك نقاط اشتباكات عصبية يبلغ عددها مائة تريليون نقطة. أما عدد المخابرات والاتصالات التي يمكن لهذه الاشتباكات العصبية إجراؤها مع بعضها البعض فيزيد على عدد ذرات الكون.

في المرحلة الأولى لأي فعالية ذهنية تدخل ما بين ١٠-١٠٠ مليون خلية في النشاط الذهني، فإذا استمرت الفعالية وتعمقت طفر هذا العدد إلى أرقام كبيرة. ويتم تبادل التنبيهات والرسائل بين فصّي الدماغ بعدد ٤ مليار تنبيه في الثانية الواحدة. وبينما كَتَبَ جنينا بعمر بضعة أسابيع كانت بنيتي عبارة عن ماء بنسبة ٩٢٪، وعندما ولدت أصبحت هذه النسبة ٩٠٪. وعندما تصل إلى سن النضوج تصبح النسبة ٧٧٪، ف ٧٧٪ من الماء والباقي عناصر مختلفة.

إن الله تعالى بقدرته وضعني في رأسك، وبواسطتي تقوم أنت بإنشاء الحضارات والاكتشافات، وبالفكر في خالك، وتذكر معنى الكون والحياة. وأنا الوسيلة لك في إدراكك وشعورك لمختلف المناظر والأصوات والروائح والطعوم، وذلك بتقييم الموجات الكهربائية التي ترد إليّ بأطوال وترددات مختلفة من حواسك. فكل شيء نعمله تمر أولا من عندي، وأنت لا تحس ولا تشعر به؛ فعندما تمشي أو تأكل أو تتكلم أو تنام تأتي لي رسائل ومعلومات من كل نقطة في جسمك. وتقييم هذه المعلومات أعطي أجوبة مناسبة لها. عزيزي عبد الله... إن ما تعرفونه عني ليس إلا شيئا يسيرا؛ فكل قسم من أقسامي له وظائف حيوية واسعة جدا، ودعني أخبرك بأهم الوظائف التي يقوم بها كل منها بشكل موجز:





ومع أن قُصِي المخ يتشاهان تماما في منظرهما إلا أن هناك بعض الفروق بين وظائفهما؛ فمثلا المراكز المسؤولة عن النطق عند أكثر الناس في الفص الأيسر، بينما المناطق التي تسيطر على الإحساس بالمكان في الفص الأيمن. وعندما تحتاج إلى إجراء عمليات منظمة (مثل الجمع والطرح أو عند ترديد قميصك) تقوم باستعمال الفص الأيسر. أما إن كنت تفكر بالاستعانة بالرسم فتستعمل الفص الأيمن. ولولا الألياف العصبية الغليظة التي تربط بين فصي المخ لاستطعت قراءة كلمة "السمكة" ولكنك كنت ستعجز عن تمثل السمكة أمام عينيك. لذا لابد من استعمال الفص الأيمن.

المادة السنجابية

هي القشرة التي تغطي فصي المخ وتحتوي على تلافيف والتواءات كثيرة. والقشرة تحتوي على القسم الأكبر من خلاياي. أما المادة الموجودة تحتها فلونها أفتح، ويطلق على المنطقة التي توجد فيها اعتادات خلاياي اسم "المادة البيضاء". ومنطقة القشرة (اللحاء) تتكون من ست طبقات، وخلاياها مختلفة. وتشكل مركزا يقوم بتقييم وتحليل التنبيهات الواردة إليها من الحواس، وبالسيطرة على الحركات الإرادية للعصلات والتفكير والتذكر والتعلم. والفصان اللذان يشكلان المخ الرئيسي (الكبير) يشكلان ٨٥٪ من جميع الدماغ.

نمو النظام العصبي

عندما ولدت كان وزني أربعمئة غم، وفي سنة واحدة وصلت إلى ثمانمئة غم. وعندما بلغت سن الرابعة كان وزني ١٢٠٠ غم. وتباطأ نموي بعد السابعة. وعندما بلغت العشرين أصبح وزني ١٣٧٩-١٤٣٤ غم. أما في النساء فيكون أقل قليلا، وأصل إلى وزني النهائي عند النساء في وقت أبكر مما أصله عند الرجال (المتوسط عند النساء ١٢٣٠-١٣٠٦ غم). وبعد سنوات الشباب أقلص كل سنة بمقدار غم واحد في المتوسط. وعندما تبلغ الخامسة والسبعين من عمرك أكون قد تقلصت بنسبة العشر بالمقارنة مع وزني عندما كنت في سن العشرين. وسبب هذا أن خمسين ألف خلية عصبية تقريبا تموت كل يوم أو تصبح غير ذات فائدة بعد العشرين.

ومع أن خلايا الجسد تملك قابلية تجديد نفسها بعمليات الانقسام وزيادة أعدادها إلا أن الخلايا العصبية ما إن تبلغ العدد المكتوب في قنبرك بعد مراحل التطور الأولى في الرحم حتى تفقد

خاصية التكاثر. ولكن عدد الارتباطات بين الخلايا يزداد، لذا يزداد وزني. وذلك بسبب ما يرد إلى هذه الرابطات من الغذاء من الخارج. وعندما يتقدم العمر يقل عدد هذه الرابطات. وفي مرحلة الشباب عندما تقرأ أو تشاهد أي شيء أو تمر بأي تجارب.. كل هذه الأمور تزيد من عدد هذه الارتباطات. وهذا يؤدي إلى زيادة قابليتي في التفكير. وإذا داومت في مرحلة الشيخوخة على هذه الفعاليات الذهنية من قراءة ومطالعة وكتابة، ولم تنقطع عن فعاليات الاجتماعية استمرت الزيادة في عدد هذه الارتباطات.

مناطق الدماغ ووظائفها

عندما نقوم برسم خريطة للقشرة التي تغطي المخ الرئيسي نرى أن هناك مناطق مختلفة للحواس وللفعاليات الأخرى تتكاتف فيها بؤر معينة لها حلود معلومة بمقياس لا بأس به. فمثلا قسيمي الموجود في المنطقة القذالية الواقعة خلف رأسك تماما هو قسم الرؤية، أما أقسامي الموجودة في منطقة الجبهة فهي للسمع. وعلى اليسار توجد منطقة التكلم (هذا في الأغلب)، وفي منطقة الجبهة (الفص الأمامي) يوجد في الجدار الأمامي للأخدود الوسطي المركز الأول المسؤول عن تخطيط حركات الإنسان، ففي القسم العلوي من المنطقة الامامية مركز مسؤول عن الحركات المعقدة، وخلفه مباشرة وفي وسط المنطقة الجانبية مركز مسؤول عن الحركات البسيطة. أما المنطقة الموجودة خلفه والمجاورة لحاسة السمع والتي تمتد إلى الأعلى فمسؤولة عن حاسة اللمس. ولكن جميع هذه الساحات والمناطق ليست بمعدة بشكل قاطع، بل هي في وضع مبعر وتملك شبكة من الارتباطات المعقدة. أما الساحات الموحدة القريبة من هذه المناطق فمسؤولة عن تحويل التنبيهات الآتية من الحواس إلى معانٍ وصور.

النخاع الشوكي

يمتد النخاع الشوكي بعد خروجه من القحف في العمود الفقري، وهو المركز الذي تربط به التنبيهات الآتية من مناطق الجسم الموجودة تحت الرقبة. ومع أن المادة السنجابية تكون في الخارج (القشرة) والمادة البيضاء في الداخل، إلا أن المادة السنجابية تكون داخل النخاع الشوكي في الداخل في شكل فراشة، أما المادة البيضاء فتكون في الخارج وتشكل غلافا يحيط بالمادة السنجابية، ويؤمن هذا المركز جميع ردود الأفعال في الحبل الشوكي بواسطة التنبيهات الآتية من المحيط -ولا سيما من الجلد والعصلات-

حين قيامك بوضع لقمة في فمك. ولكن جميع عمليات إفراز الغدد الهضمية وجميع حركات المعدة والأمعاء، وجميع فعاليات الإفراغ تجري كلها خارج إرادتك بشكل آلي. فحركة تنفسك لا تتوقف عندما تنام، ولا تتوقف كليتك عن فعاليتها لكونك نائماً، ولا يقوم قلبك بالتوقف عن عمله وأخذ قسط من الراحة عندما تنام، ولا يتوقف كبدك عن نشاطه، ولا يتوقف البنكرياس عن إفراز الأنسولين. وجميع أعضائك الداخلية وشرابن دمك مستمرة في أداء أعمالها بالتعاون مع العضلات المستقيمة في كل وقت ومكان. وتجري كل هذه الفعاليات والأنشطة دون أن تشعر بها، والحقيقة أنك لو قمت بأدائها شعوريا لتعبت بعد خمس دقائق فقط، إذ لا تستطيع الاستمرار في التركيز فينبشت انتباهك.

الآليات العصبية

تنقسم الآليات العصبية في المنظومة العصبية في الإنسان إلى قسمين: أولهما القسم السمبثاوي، والثاني نظير السمبثاوي. وقد خلق هذان القسمان بحيث يجب أحدهما الآخر بشكل متقابل وتمتد بشكل سائب. ويقوم أحدهما بتحفيز العضو للعمل السريع وللإنتاج الكثير، بينما يقوم القسم الآخر بتهدئة العضو وتبطينه وتقليل الناتج. وبين هذين التنبهين يقوم العضو - حسب ظروفه وأوضاعه - بأنسب إيقاع عمل وأفضله. والقسم السمبثاوي يهيئ الجسم في الأغلب لمواجهة الظروف المتوترة وظروف الصدمات. فمثلاً تعود زيادة ضغط الدم وزيادة مستوى السكر في الدم وزيادة التعرق وتوسّع حلقتي العين وسرعة جريان الدم في العروق إلى تأثير الآليات العصبية السمبثاوية. أما القسم نظير السمبثاوي فيعمل على إعادة الأحوال الهادئة للأعضاء الداخلية وإلى تخفيض ضغط الدم لكي تستطيع هذه الأعضاء القيام بوظائفها.

الخلايا العصبية

تحدث منذ البداية عن أقسام وتنبيهات مختلفة، ولكني لم أتحدث عن خليتي العصبية التي تعد الأساس في المنظومة العصبية ولا عن كيفية عملها. فالخلايا العصبية التي يبلغ عددها ٣٠ مليار خلية هي الوحدات الأساسية التي تعمل في جميع أقسام المنظومة العصبية. والخلية العصبية تتكون من جسم الخلية ومن الامتدادات العديدة التي تخرج من جسم الخلية مثل الأغصان المشابكة للشجرة. ونحن نطلق اسم "المحور العصبي" على جسم الشجرة وعلى امتداده الوحيد والغليظ. أما أغصان الشجرة وتفرعها الدقيقة فتدعى

بواسطة عُقد الاتصال (الخلايا الرابطة) الموجودة بين الخلايا العصبية. وبينما يقوم قسم من الخلايا الرابطة بالإجابة على ردود الأفعال يقوم القسم الآخر بنقل هذه التنبيهات إلي. وهكذا تظهر القرارات الإرادية.

يخرج من الحبل الشوكي ٣١ زوجاً من الأعصاب يساراً ويميناً. أما من المنطقة داخل الفحف فيخرج ١٢ زوجاً. وجميع هذه الأعصاب تخرج من مركز الجهاز العصبي وتتوزع على مختلف الأعصاب، فهي إذن منظومة عصبية لمحيط الجسم. وباستثناء العصب العاشر الذي يخرج من المخ وهو "العصب النائم" تقوم جميع الأعصاب الخارجة من المخ بالسيطرة على فعاليات الحركة والإحساس لمنطقة الرأس والعنق. أما الأعصاب الخارجة من الحبل الشوكي فيخرج كل عصب من الثقب الموجود في جانب كل فقرة من العمود الفقري. ولكل عصب من هذه الأعصاب جذران: أحدهما جذر عصب الإحساس ويقوم بإيصال التنبيه، والآخر عصب الحركة ويقوم بنقل أمر الحركة. وما إن يخرج هذان الجذران من فقرة العمود الفقري حتى يتحدا في الخارج. وهكذا تظهر الآليات العصبية المحدولة التي تنقل الأحاسيس وتنقل أوامر الحركات أيضاً. ومن هذه الآليات العصبية تنقل فروغ نحو كل عضو من الأعضاء؛ فمثلاً إن غرست إبرة في يدك قامت الخلية العصبية التي تنقل التنبيهات والأحاسيس بإيصال هذا التنبيه إلى الحبل الشوكي عن طريق ذراعك. والجواب الوارد من الحبل الشوكي هو رد فعل يبعثك تسحب يدك حالا. ورد الفعل هنا يصل إلى عضلات الذراع وعضلات اليد.

عناية رابطة

تنقسم هذه الخلايا في المنظومة العصبية العائدة إلى محيط الجسم إلى مجموعتين: المنظومة الجسدية المنتشرة في عضلات العمود الفقري، والمنظومة العصبية المنتشرة في الأعضاء الداخلية. ومعظم فعاليات المنظومة الجسدية تكون إرادية وشعورية، أما الأخرى فمعظم فعاليتها تكون لإرادية ولا شعورية. وأما الفعاليات اللاشعورية فهي تسيطر دون أن نشعر على العضلات المستقيمة التي تنظم ضربات القلب وإنتاج عصارات الغدد وإفرازها وعضلات الشرايين الدموية وعضلات التنفس والهضم والإفراز والتناسل. عزيزي عبد الله...

لو أعطيت كل شيء تحت إمرتك وسيطرتك هل كنت تستطيع تدبير كل هذه الأعمال العديدة وإجهاها؟ إن إرادتك تعمل حتى



"الرائدة الشجرية". والتنبيهات التي تسير بشكل تيار كهربائي تنتقل من المحور العصبي نحو هذه الزوائد الشجرية. ونقطة الارتباط بين محور خلية عصبية والرائدة الشجرية خلية عصبية أخرى يتم عن طريق إفراز مادة كيميائية تدعى "نوروترانسmitter" إلى الفراغ الموجود في نقطة الاشتباك. وما إن تصل هذه المادة إلى جدار الخلية الموجودة تجاهها حتى يحصل تيار كهربائي. وكما يحدث في أحجار الدومينو حيث تسقط هذه الأحجار بالتتابع، أو كما يحدث في بعض المباريات عندما يرفع المتفرجون أيديهم بالتتابع محدثين حركة متلاحمة، كذلك تنتقل الرسائل التي يحملها التيار الكهربائي بسرعة كبيرة من طرف الخلية إلى الطرف الآخر، ثم تنتقل إلى الخلايا المجاورة. وبينما تملك الخلية في حالة سكوتها (7.0 mV) طاقة مدخدة يمكن تيار كهربائي شدته (30 +) إلى (40 + mV) نقل جميع المعلومات المطلوبة. وكل خلية تستطيع نقل ألف إشارة في الثانية الواحدة.

الذاكرة

أما الذاكرة التي لا نعرف تماما ماهيتها حتى الآن، فهي تقوم بجزن مئات الشجرات كل يوم وتستطيع إرجاعها إلى ذاكرتنا. وهناك عدة نظريات تحاول تفسيرها وتفسير كيفية عملها. ولكننا نعلم أن جواب هذا السؤال لا بد وأنه يكمن داخل خلايا العصبية. وبالنسبة للذاكرة فمن الصعب تحديد مركزها تحديدا قاطعا. وربما كانت هناك علاقة لجميع المراكز العصبية بالذاكرة. والذكريات المخزونة تكون على أنسواء: فمنا صوتية، ومنا صور ومُشاهد، وبعضها تتعلق بالروائح، وبعضها تتعلق بالخيال، وأخرى بأحاسيس الغضب أو الفرح.

وأنت لا تستطيع حتى تحيّل مدى سعة الذاكرة عندي؛ فأنا أملك نوعين من الذاكرة؛ أحدهما على المدى القصير، والآخر على المدى البعيد. ففي المدى القصير أستطيع في كل مرة حفظ تسعة أشياء مختلفة كحد أقصى. ومعظم الناس لا يستطيعون حفظ أكثر من سبعة أشياء في ذاكرتهم. وفي الذاكرة على المدى القصير لا يبقى شيء أكثر من بض دقائق. وما تذكره للشدة التي تريد على هذا يعود إلى الذاكرة على المدى البعيد حيث يسجل هناك، فيبقى هناك أياما وأسابيع وشهورا بل ربما لسنوات. وما تعلم أو تعلم من شيء إلا وهو محفوظ في الذاكرة على المدى البعيد. وما إن تبلغ الثامنة من عمرك حتى يبلغ حجم المعلومات المخزونة في ذاكرتك ما يساوي المعلومات المدونة في مليون مجلد من دائرة

المعارف. ومع ذلك فهذا المقدار يعد شيئا ضئيلا، لأن ذاكرتك على المدى البعيد تملك سعة غير محدودة ولا يمكن منبها؛ فحين لو تجاوز عمرك المئة عام فإن ذاكرتك مستعدة لحفظ أشياء جديدة على الدوام. إن فعاليات التعليم في الصغر (مثل حفظ القرآن الكريم أو تعلّم لغة) تكون أسهل، وتحقق بشكل سهل ورضين. ومثل هذه الفعاليات التعليمية في الصغر تقوّي الذاكرة.

الاشعور

أما تذكر حادثة فهو تكرار الشفرة الكهربائية التي سجلت تلك الحادثة في أثناء حدوثها. فأحيانا نحاول تذكر اسم شخص فلا نستطيع، مع أنك تشعر أن الاسم على طرف لسانك، ثم تأس وتترك محاولة التذكر. ولكن ما إن يمر يوم أو يومان حتى يحضر ذلك الاسم على بالك فجأة ففرح. فهل تعرف كيف يحدث هذا؟ عندما نحاول جاهدا تذكر الاسم فأنت في الحقيقة تستعرض جميع خلايا العصبية للتوصل إلى الملف الذي خزنت فيه ذلك الاسم، ولكنك لا تجده عند بحثك واستعراضك للمباريات الخلايا العصبية؛ لأنك إما لم تستعمل ذلك الملف كثيرا، أو لم تضعه في مكان أمين لعدم أهميته بالنسبة لك. ولكنك لا تنسى أبدا اسم والدك، لأنك تعدّه شيئا مهما وتستعمله بكثرة، لذا فهو موجود في ملف أمام عينيك.

ولكن عندما تأس وتتحلى عن محاولة التذكر تبدأ آلية أخرى بالعمل يطلق عليها اسم الاشعور، وهي آلية حافلة بأسرار أكثر. تبدأ هذه الآلية بالعمل دون أن تشعر بها، وتخرج لك ذلك الملف وتضعه أمامك فذهل وتعجب. فالاشعور مكان مخفوف بالأسرار ويؤثر في جميع جوانب حياتك. ولا يسجل في الاشعور سوى المشاعر الصادقة والحقيقية الحالية من الرياء والأفكار الحقيقية. ثم هناك الذكريات الأليمة وذكريات الذنوب التي تترك من أعماقك.. ومثل هذا الشعور بالذنب الموجود في الاشعور وعقدة النقص تعكس في العديد من سلوكك. ولكن مثل هذه المشاكل نتيجة لا يمكن للإنسان الهرب منها، ولكن الخلاص منها بيدك. فإن كنت رجل إرادة وشغلت نفسك بصير بأعمال الخير نجتحت في تغليب فطرتك السليمة فلا تعود تلك الذكريات القبيحة مؤذية لك، فننجم في إصلاح هذا الأمر. ■

(٥) جامعة ٩ أبول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي.





المسلمون

بين الشدائد والبشائر

أ.د. الشاهد البوشيخي*



لا بد من الثمن لأي سلعة، وبما أن سلعة الله الجنة فمنها غال جدا، لأن الجنة هي مستقر الرحمة، قال رسول الله ﷺ: "إن لله مائة رحمة. فمنها رحمة بما يتراحم الخلق بينهم. وتسعة وتسعون ليوم القيامة" (متفق عليه). فيقسمه واحدة يتراحم جميع الخلاق منذ كانت الدنيا حتى تفنى، جميع مظاهر الرحمة التي ترى في علاقة الآباء بالأبناء، والمؤمنين بعضهم ببعض، والوالد بولده، والوالدة بولدها، وعلاقة جميع الكائنات، وجميع مظاهر الرحمة والرفقة والحنان كلها تدخل في قسمة واحدة، وهي مَجْلَى صفة الرحمن ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، وتسعة وتسعين للرحيم ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦). شاع بين الناس أن الله رحيم الدنيا ورحيم الآخرة وذلك له شراعه ومنها هذا. الرحيم لشدّة الرحمة، والرحمن لسعتها، والرحمة لسمعتها يدخل فيها جميع الخلاق كفارا كانوا أم مؤمنين، أحياء كانوا أم غير أحياء، أم حمادات، أما اسمه الرحيم، فهو للمؤمنين ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأعراف: ٤٣)، تلك الرحمة تتجلى أساسا في الجنة، وفيما أعد الله لأهل الجنة، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (بوس: ٢٦)، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ن: ٣٥)، هذا الثواب العظيم جدا الذي نفيس الغائب فيه على الشاهد؛ فإذا كانت الرحمة الواحدة من المائة من رحمة الله قد غرق فيها جميع الخلاق فكيف هي هذه الرحمة؟

ومن ثم فالفرح أساسا بفضل الله وبرحمته ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبِذْكَ فَلَيْفَ حُزِرَا﴾ (بوس: ٥٨)، "ما من أحد يدخله عمله الجنة" فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني ربي برحمة" (رواه مسلم). ومن تغلّده برحمته التوفيق إلى فعل ما يوجب رحمته ﴿يُنَزِّلُكُمُ الْمُنَّةَ أَوْ تُشْكُوها بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ٤٣). فإذا هذه السلعة عظيمة الشأن جدا، شيء لا يتخيله الدهن حتى إذا أراد تخيله لا يستطيع تخيله، فلا بد أن يكون منه كذلك مرتفعا، لا بد أن يكون عاليا "ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة" (رواه الترمذي). المؤمنون ما كان يحركهم وما يحركهم ولن يحركهم حق التحريك إلا مثل هذه السلعة، فهم عن الدنيا وفيها زهدوا، لأنها



فانية بكل ما فيها، فكيف يمكن التعويل على أي شيء فيها. تدرت في الأمر فوجدتها تلخص في هذا: لا بد من من يكافي الثمن، يكافي السلعة التي ستشتري، وما أن هذه السلعة هي الجنة فتحتاج إذا إلى من باهظ، ولكنه أيضا يسير على من يسره الله عليه، كما في الحديث الصحيح (رواه الترمذي).

التربة بالأخطاء

البشائر بالنسبة للمؤمنين كثيرة جدا، فيها العام وفيها الخاص وفيها القريب وفيها البعيد. وأعظمها هذه البشرية، بشرى الجنة، ورضوان الله ﷻ؛ فالله وعد المؤمنين بالنصر وجعله حقا عليه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧)، وقال: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ (ممد: ٧) في أي لحظة تاريخية وأي بيئة وأي وسط ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، إذا لم تجد جواب الشرط فاعلم أن الشرط فيه خلل، أما جواب الشرط فلا يمكن أن يتطرق إليه خلل مع وجود الشرط. فإذا رأينا في الخارج ما لم يعجبنا، فلنتأمل جميعا قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ أَصَابِكُمْ مِصْبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا فَلَنْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥) ليس من جنس خارجي، ليس من اليهود ولا من النصارى كما يحدث عادة في التحليل لأوضاع وأحوال المسلمين، الكل لا أصل له، التعليل والتحليل الصحيح القرآني السنني دائما داخلي. وما أصاب المسلمين في السيرة النبوية لا في أحد، ولا في حين، ولا في أي وقت إلا بما كسبت أيديهم، وذلك لظروف عظيمة تنبئ على ذلك. فالترية بالأخطاء هي وجه من وجوه التربية العظيمة، لأن الإنسان قبل أن يصيبه جواز الخطأ تقريبا قد يكون سكران ساهيا، ولا يصحح إلا بعد نزول الصفعة، إذ ذاك يتهاى نفسيا للتلقي. صحيح كما قال ﷺ "السعيد من وعظ بغيره" (رواه مسلم)، ولكن هذه درجة عالية، ومن أجلها قص القصص ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١)، لأن في القصص وفي غير القصص، في أمور الكون التي يفكر فيها، ما يكفي للدلالة والإرشاد، لكن لمن كان فيه ما يلزم من الاستعداد. أما إذا لم يكن ذلك الاستعداد فإنه لا بد من هبى ظروف الاستعداد بأشكال

من الصفع والضرب والركل وما أشبهها، تتجلى بأشكال مختلفة لتُهَيِّ الجور للتلقي، وإن ما حدث للمسلمين بصفة عامة في القرنين الأخيرين هو من النعم التي في طيها كثير من النعم، فهي نعم فيها عدل الله وفضله؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (صافات: ٤٦) لأن ما أصابنا فيها كان على الشئ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى: ٣٠). فظاهرة الاستعمار حملة في العالم الإسلامي، كل ذلك مما كسبت أيدينا، وبما أن الذين كلفوا بحمل الأمانة ووكّل إليهم أمر الشهادة على الناس، ما حملوا الأمانة وفرطوا فيها، وأخلدوا إلى الأرض واتبعوا هواهم فابتلاهم الله بأشكال من الابتلاءات. وأقول: فيه عدل الله ﷻ، وفضله، ومن ذلك الفضل هذا الوجه الثاني للأمر، وهو أن هذا السكر بالدنيا لا سبيل إلى إيقاظ المسلمين منه إلا بمثل هذه الصواعق المحرقة، وهذه الكوارث، لأنه لولا مثل هذه الصواعق ما استطعنا أن نستيقظ، وما كان ما يتحدث عنه اليوم بالصحو الإسلامية التي ترجو أن ترشّد وأن تتسع وأن يمكن الله لها في الأرض بجموده وكرمه. فإذا الله وَعَدَ ووعده صادق، ولكن ما وعد الله وعدا إلا مشروطا، وعوده بالنصر العام، أو بالتخصيص بالنصر في الدنيا مثل ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١) و"الذين آمنوا" حتى ولو لم يكونوا الرسل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ "في الحياة الدنيا" بالتحديد، و"إن" و"لننصر" كلها توكيدات. ثم جمع هذا الأمر في صورة السنة الماضية الكونية في صورة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) سواء كانت "الأرض" بمعنى صغير كما ذهب بعض العلماء بأنها بمعنى "فلسطين" فقط ﴿أَدْخِلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (التلعة: ٢١)، أو كانت الأرض هذه الدنيا الكرة الأرضية كلها، أو كانت الأرض هي الجنة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ (الزمر: ٧٥) المعاني لا يوجد لها مخصص في الآية ولا داعي للتخصيص، بل ما جاء من الآيات بعد جاء موضعا لأشكال الأرض، فهي سابقة على الأولى، وسابقة على الثانية، وسابقة على الثالثة.

البشائر بالنسبة للمؤمنين كثيرة جدا، فيها العام وفيها الخاص وفيها القريب وفيها البعيد. وأعظمها هذه البشرية، بشرى الجنة، ورضوان الله ﷻ؛ فالله وعد المؤمنين بالنصر وجعله حقا عليه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧)، وقال: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ (ممد: ٧) في أي لحظة تاريخية وأي بيئة وأي وسط ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، إذا لم تجد جواب الشرط فاعلم أن الشرط فيه خلل، أما جواب الشرط فلا يمكن أن يتطرق إليه خلل مع وجود الشرط. فإذا رأينا في الخارج ما لم يعجبنا، فلنتأمل جميعا قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ أَصَابِكُمْ مِصْبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا فَلَنْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥) ليس من جنس خارجي، ليس من اليهود ولا من النصارى كما يحدث عادة في التحليل لأوضاع وأحوال المسلمين، الكل لا أصل له، التعليل والتحليل الصحيح القرآني السنني دائما داخلي. وما أصاب المسلمين في السيرة النبوية لا في أحد، ولا في حين، ولا في أي وقت إلا بما كسبت أيديهم، وذلك لظروف عظيمة تنبئ على ذلك. فالترية بالأخطاء هي وجه من وجوه التربية العظيمة، لأن الإنسان قبل أن يصيبه جواز الخطأ تقريبا قد يكون سكران ساهيا، ولا يصحح إلا بعد نزول الصفعة، إذ ذاك يتهاى نفسيا للتلقي. صحيح كما قال ﷺ "السعيد من وعظ بغيره" (رواه مسلم)، ولكن هذه درجة عالية، ومن أجلها قص القصص ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١)، لأن في القصص وفي غير القصص، في أمور الكون التي يفكر فيها، ما يكفي للدلالة والإرشاد، لكن لمن كان فيه ما يلزم من الاستعداد. أما إذا لم يكن ذلك الاستعداد فإنه لا بد من هبى ظروف الاستعداد بأشكال



العبادة بالاختيار

أخرجت أساسا للناس، إذ لها خصوصية لكن الآية عامة.

صناعة التوحيد والإيمان

ثم البشري في الآخرة بالجنة ووردت في أماكن ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (نور: ٦٢-٦٤). وفي سورة الصف جاءت البشري ﴿وَيُبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٣)، حين نسمع لفظ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في القرآن مستقلا عن أي شرط، نعلم علم اليقين أن ما سواه يدخل فيه، وما يأتي بعده كله داخل فيه، لو قال الله ﴿وَالْعَصْرُ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الصبر: ٣١) فقط وسكت، فاعلم علم اليقين أنه يدخل فيها: ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ وَاتَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾. فحين يذكر الإيمان وحده فهو يشمل العمل، لأنه لا يتصور إيمان بدون عمل، إنما في أذهان الناس وفي عقل المتكلمين، أي الذين اشتغلوا بصناعة التوحيد لا في صناعة الإيمان، إذ كان رسول الله ﷺ مشغولا بالإيمان فيمارس الإيمان ويتكلم بالإيمان وعن الإيمان وفي أهل الإيمان، وجاء الناس بعد وتكلموا في التوحيد وتكلموا في الكلام، وبقي الكلام مع الكلام وصارت الأمة إلى ما صارت إليه. فالإيمان بالتعبير القرآني يستلزم العمل الزامًا، ويستلزم العمل الصالح، إلا أنه نظرًا إلى أن الناس يحتاجون دائما إلى مزيد من البيان والتكرار والتوضيح فالله ﷻ بين ووضح حتى قطع الحجة، ومن أجل ذلك أرسل الرسل، وضرب الأمثال، وقص القصص، بين كل شيء ﴿لِّنَّالَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥). وانقطاع الحجة بالرسول باعتبارهم يعطون المثل البشري لتطبيق الشرعي؛ تراء أمامك مثالا يمشي على رجليه، ها هو مطبق، وتطبيقه له لا من جهة كونه رسولا، وإنما من جهة كونه بشرا، بمعنى أنه أطاق ذلك وهو بشر، لم يطقه لأن فيه قوة خاصة جاءت وهو ملك، لا، وإلا ما صار قدوة للناس ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١) لأنه فعل ما يفعل البشر ويطقه البشر، والله كلف البشر ما في وسعهم ﴿لَّا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

الحق والمنهج

فالبشائر كثيرة ووعد الله عظيم للمؤمنين في أي فترة وفي أي

فألفه وعهد في الذكر الأول وفي الزبور وفيما جاء مما نزل من الكتب، وحتى نزول الكتاب كله وهو القرآن، وعهد بأن الأرض يرثها عباد الله الصالحون، قال الله: ﴿وَلَقَدْ كُتِبْنَا﴾ هذا أمر قد كتب وفرغ منه، ولكن الشرط دائما حاضر ﴿عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ ﴿عِبَادِي﴾، إن هذه اللفظة - لفظ عبد الله - ليست لفظا عادية، لفظا فيها كثير من الأهمية والخطورة، فالله سبحانه حين أراد أن يمدح محمدا ﷺ سماه "عبد الله" ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ (الإسراء: ١) ما قال: "برسوله"، ولا قال: "بنبيه"، بل قال "بعبد". فلفظة "عبادي"، وليس "عبيدي" أيضا فيها سر، لأن هناك "العبادة بالاضطرار"، وهناك "العبادة بالاختيار"، ولفظ "العبيد" في الغالب، إلا في بعض السياقات يذهب عادة إلى العبادة بالاضطرار فالكل ﴿إِنِّي الرَّحْمَنُ عَبْدٌ﴾ (مرم: ٩٣) ولكن العابد لله بالاختيار هو الذي جعل من نفسه عبدا، هو اختار من نفسه عبدا لله هو عبد الله بطبيعة الحال، ولكن معنى الاختيار جعل نفسه عبدا لله، "عبد الله" هذا يجمع على "العباد"، على "عباد الله"، و"عباد الرحمن"، ليس و"عبيد الرحمن"، هذا من "العبادة" وليس من "العبيدية". فالعبادة ببساطة أن تجعل من نفسك عبدا لله باختيارك، إذا جعلت من نفسك باختيارك عبدا لله فأنت عابد لله، وأنت من هؤلاء "عبادي" الذين يترنون.

الصالحون المصلحون

شرط آخر: ﴿الصَّالِحُونَ﴾ هذا مزيد من البيان، وإلا فعباد الله فيها كل شيء، تماما مثلما يقول الله ﷻ: "الله"، ثم يأتي بعد ذلك بالأسماء الحسنی، وكلها مضمنة في "الله". فعباد الله فيهم صفات كثيرة، لخص تلك الصفات ههنا في "الصالحين" فمن هم الصالحون؟ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (التكوير: ٩٢). فالصالحون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، و"الباقيات الصالحات" هي كل شيء، الباقيات الصالحات جميع الأعمال، فهذه الوعد كبير وعام، كوني لكن يحتاج إلى شرطين:

١- شرط الإيمان. ٢- شرط الصلاح والأهلية.

الصلاح في هذه الأمة متمثل أساسا في إصلاحها للناس، لأنها





مرحلة، ولكن تلك الوعود جميعا لا نفاذ لها، ولن تكون إلا إذا وجدت شروطها وأمتتها. والأمنه عندما ندخل إلى الثمن يشدني المفهوم الآخر وهو الذي يبتدئ بقوله تعالى في آيات تم الكلام عنها: ﴿لَمْ أَخْصِبِ النَّاسُ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ١-٣)، والفتن في العربية: وضع المعدن (الذهب أو الفضة) على النار الشديدة حتى يذوب وتطوف الشوائب فيصفي من تلك الشوائب ويبقى المعدن ذهباً خالصاً أو فضة خالصة. فإذا المؤمن فيه شوائب قبل تصفيته بالفتن، فالفتن ضروري وسنة ماضية، وبه يتميز الناس. ما أشبه الإيمان بحجة ربانية يعطاها الناس الذين أكرمهم الله دون سابق عمل؛ فليس منح الإيمان منحة خالصة لا يسبقها عمل هي جزاء هم؛ فقد يكون الإنسان كافراً ثم يصبح مومناً، لم يفعل عملاً صالحاً قبل، لأنه لا قبول للعمل الصالح دون وجود الإيمان، فهي منحة. تصور أن أبا -ولله المثل الأعلى- عنده أبناء متعددون أعطاهم دفعة واحدة مليون درهم ثم قال لهم اذهبوا، تصرفوا؛ فبعضهم غمى ذلك المال، وبعضهم أكله من ليلته قامر به، وبعضهم طهى عنه حتى سرق له. كل له تصرف فيه، فكذلك الناس -و الله المثل الأعلى- يُمنحون الإيمان، ومنحون القدر الضروري الذي إن غمزه زكت نفوسهم ووصلوا إلى أعلى الدرجات مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (العنكبوت: ١١)، ولكن هناك ناس لا يزكون ذلك ولا يبنون فتيانقص حتى يذهب. فكم من ناس كانوا مؤمنين فكفروا وارتلوا. حتى في زمن رسول الله ﷺ وقع هذا، وفي كل زمان يقع هذا ويمكن أن يقع. وإن كل نعمة هي في الحقيقة منحة، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ (الزور: ٢١)، ولذلك قال رسول الله ﷺ "اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكها أنت ولها ومولاه" (رواه مسلم) رغم أنه قال لنا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩-١٠) وأنه أعطانا التصرف ولكن التوفيق منه ﷻ. فكل نعمة هي في أصلها منحة،

وتحتاج إلى تسمية أيضاً، بالتركية، بالزكاة. وبالزكاة تربو النعمة وتزداد، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْحَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ سَتَنْثَبَهُمُ النَّبَأُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُوفُهُ﴾ (البقرة: ٢١٤)، مثل الزلزلة التي تحدث عنها القرآن ﴿هَٰذَا الْبَلُ الْأُولَى الْمُؤْمِنُونَ أَزْلَوْهُ﴾ (الأعراب: ١١) وقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الزلزلة: ١) زلزلت القلوب من شدة الرعب، والهمول والضيق، ولكن مع الإيمان القوي تثبت والله المنبت، ﴿يَبْقَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (البراهم: ٢٧). ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْحَنَّةَ﴾ هذه التي تحدثنا عنها أن فيها تسعة وتسعين من الرحمة التي رأينا غودها واحداً، التي تحس بواحد على ما لا نهاية بالنعيم الرياضي تقريبا من سعة هذه الرحمة وعظمة هذه الرحمة الموجودة في الكون الآن. فهي مجرد قسمة، فلك التسعة والتسعين مثل وضعف لذلك الضعف، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظُنُّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ (يوسف: ١١٠) اشتد أزمة تنفرجي. فإذا سنة البلاء سنة كونية حياتية حين قال الله: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ ثم خلق الموت والحيوة لِيَبْلُوَكُمْ ﴿الملك: ٣﴾ ليست فقط في الحياة، بل حتى الموت نحن مع الفتنة ﴿وَيَبْلُوَكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (النساء: ٣٥). فالإنسان حين يكون في عافية لا يظن أنه ليس في فتنة أو ليس مبتلى، بل هو مبتلى إذ ذاك، حين يكون مبتلى بتلك العافية هل يشكر نعمة الله أو لا يشكر؟

تمييز الحثيث من الطيب

وهنا نقطة أحسبها في غاية الأهمية وهي أن الله أسس الأمر على البلاء والفتن، وعلى أساسه تكون الرتب عند الله وفي الدنيا، ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيُصْطَرُّونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر: ٨). ورسام الصدق أعلى وسام، ولذلك طلب الله من جميع المؤمنين أن يكونوا مع هؤلاء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (القصص: ١١٩).

سنة البلاء هذه -بصفة عامة- تقوم على الفتن، والفتن يؤدي إلى غييز الخبيث من الطيب، وإن في المؤمنين الخبيث والطيب؛ كما



أنواع البلاء

والبلاء أنواع؛ فيها ما يطلب وفيها ما لا يطلب. نحن لا نطلب المرض مثلاً، "فاسألوا الله العافية" (رواه الطبراني)، وهناك نوع من البلاء يطلب، كبلاء الجهاد بجميع صورته، طُلب منا أن نطلبه وهو بلاء. الاستشهاد آخر صور الجهاد، فأن يجاهد نفسك في ذات الله، وأن يجاهد شهرتك ووليك وتجارتك... حتى يجاهد روحك التي بين جنبيك في سبيل الله وتعطيها راضياً في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله، إن قَدِمْتَ هذا برغبة منك في ذلك، هذا عَرْضُكَ النُّوعَ الآخر، وإلا طُهِرْتَ بالنوع الآخر، والله الذي يختار ﷺ، فقد يختار من هذا وهذا، وقد يختار من هذا دون هذا ﴿وَوَرِّثْ يَتَخَلَّوْا مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (النفس: ٢٨)، لكن إن تأملنا حال الصحابة، وتأملنا عدداً من الأحوال نجد أن الإنسان يفضل الله تعالى إن صدق الله ورسوله وأخلص، ولا يكون ذلك إلا ببذل، ليس الصدق أمراً نفسياً خالصاً وكفى، لأن الصدق دليله في الجهاد، دليله في الواقع، في التضحية، إن حدث ذلك الله يدفع بذلك إداية أخرى من نوع آخر، وهو ما يقول "ولا يزال البلاء بالمعبد المؤمن حتى يلقى الله وما عليه خطيئة" (رواه الترمذي)، حتى يطيب، يصير طيباً، يعني قد تحمياً تماماً لاستقبال الملائكة له، فيقال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (البقرة: ٢٥٥). أن نكون عبيداً لله بالاتختيار لا بالاضطرار وأن نختار نحن أن نقدم ما أعطانا هو راضين برغبة منا بدل أن ينتزع ذلك منا اضطراراً وكرهاً وهو يجزينا إلى الله ﷻ كما قال ﷺ: "عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل" (رواه البخاري) يعني يجزينا إليه جراً إلى رضوانه بطريقة أخرى، حين أراد سبحانه بنا الخير. ولا أعلم في الصبيغ التي استعملها رسول الله في أمر الإصابة والخير إلا صيغتين:

- "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" (متفق عليه).
- "من يرد الله به خيراً يُصِْبْ منه" (رواه البخاري).

فهما متكافئتان، من فقه في الدين يطلب هذا الذي أمر الله به راضياً مختاراً، ومن يرد الله به خيراً يصيب منه، من طلب ذلك راضياً مختاراً نتج عنه أجور، والأجور ينتج عنها تكفير للخطايا. ■

قال الصحابة بعد نزول الآية: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذْخِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (آل عمران: ١٧٩)، قالوا: ما كنا نظن أنه يوجد خبيث وطيب في المؤمنين. فإذاً فينا خبيث وطيب، والخبيث يحتاج إلى نار الفتن حرقه في الدنيا راقفة بالمؤمن حتى لا يحرق في الآخرة، لأن كل خبيث في المؤمن بعد لقيا الله ﷻ لا بد من أن تحرقه النار إلا أن يشاء الله شيئاً بفضلته وكرمه. السنة العادية أنه لا يدخل الجنة إلا من يقال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ (البقرة: ٧٣)، وإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً" (رواه مسلم). ولا يدخل داره دار السلام إلا الطيبون، أولئك يقال لهم: ﴿فَادْخُلُوهَا ثَابِتِينَ﴾ (البقرة: ٧٣)، أما قبل أن تطيبوا لا دخول، أما إذا وجد في المؤمن جوانب طيبة وجوانب خبيثة، فلا تخلوا من أمرين:

- إما أنه في هذه الدنيا ينقى بالفتن بأشكال يختارها الله.
- وإما أنه - لا قدر الله - يخر ذلك إلى يوم القيامة وينقى بعذاب جهنم ثم يدخل الجنة بعد. لكن لا بد أن يظهر، لا بد أن يطيب.

الأشباح في يد الأرواح

هذا الفتن ضروري في عملية التصنيف هنا وهناك، وهو رحمة بالمؤمنين، وتقوية لصفوهم وقلوبهم، وتركبة لأرواحهم، وتقوية لهم أيضاً، لأنهم كلما طابوا خفت أجسامهم وأرواحهم، خفت أجسامهم، لأن الأشباح في يد الأرواح، لماذا يحس الإنسان بالثقل إذا طلب منه أن يجاهد بماله أو بوقته أو بنفسه؟ أو إذا قيل له جاهد بدمه يعطيه بيسر، بعشرة دراهم، ربما يعطيه ربما يبدأ في الإحساس بالثقل، خمسين درهماً، البعض ما زال يحس بالخفة، البعض بدأ يحس بالثقل، حتى ربما ينقل الجميع فـ ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّبِعُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ أَقْلَمْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢١٧)، هذا الثقل سببه ما في النفس مما ليس بطيب، فالروح حين تزكو تنف وتصبح كالطائر، وتسهل عليه أن تطير إلى الله ﷻ، فحين قال ﷺ: "إنكم لتكثرزون عند الفزع وتقولون عند الطمع" (رواه المسكوي في الأمثال)، لأنهم ربطوا أنفسهم بالآخرة، يكثرزون عند الفزع لأنه فيه البلاء، فكأنهم يرغبون فيما عند الله مما تركه النفس، أما حين يكون الأمر أمراً دنيوياً خالصاً، فهم يقولون. وهذا الفتن له صورتان: صورة وهي أن العبد تنزل عليه بلاءاً نزولاً، وصورة أنه هو يطلبها.

^(٩) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

مظهر جلال الربوبية في القرآن



أ. د. محمد سعيد رمضان البوطي *

عليها كتاب الوحي بأمر ومراقبة من رسول الله ﷺ، ثم بالكتابة الثانية التي قام بها زيد بن ثابت بأمر من سيدنا أبي بكر وكان الهدف منها جمع القرآن لأول مرة بين غلافين، ثم بالكتابة الثالثة التي أمر بها سيدنا عثمان بن عفان وعهد بذلك إلى أربعة من كبار قراء القرآن وحفاظه وهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن حارث بن هشام ﷺ، فكتبوا سبع نسخ ملتمزين بكتابة زيد بن ثابت الذي التزم بكتابة كتاب الوحي، واعتمد فيما كان يكتب على السماع من شاهدين اثنين من حفظة القرآن، بالإضافة إلى اعتماده على ما كان قد كتبه كتاب الوحي في بيت النبوة. فوزع عثمان النسخ السبعة على أمهات الأمصار آنذاك: الكوفة، والبصرة، والشام واليمن ومكة والبحرين، واستبقى عنده المصحف الإمام وهو ذاك الذي كتبه زيد بن ثابت في خلافة أبي بكر.

فأي خبر أو كتاب سار خلال القرون في مثل هذا النفق

إن الصفات التي يتميز بها كتاب الله (القرآن) عن سائر الكتب السماوية كثيرة ومتنوعة. ولكني أحب أن ألفت النظر إلى مزيّتين اثنتين، هما من أبرز مظاهر إعجازه، لم يرق على شأوهما أي كتاب آخر.

أما أولى هاتين المزيّتين؛ فما تعلمه جميعا، من أنه وصل إلينا من قم رسول الله ﷺ ضمن سلسلة متصلة من التدوين الكتابي الدقيق، والتلقي الشفهي السليم، سارا جنباً إلى جنب إلينا في تطابق واتفاق، واستمر ذلك إلى هذه الساعة من يومنا هذا، لا نرى على طول هذه السلسلة الممتدة حلقة مفقودة أو ثغرة ينفذ منها الشك أو اختلافاً يبعث على الريبة. فلكنّا من هذا الكتاب الرباني أمام شمس واضحة مشرقة تسير أمام أعيننا في قبة السماء الصافية، ليس في طريقها مزقة سحاب تقشي عليها، وليس بيننا وبينها أي زواعة أو ضباب يمكن أن يحجب شيئا من ضيائها عنا، والحديث هنا لا يتسع للتذكير بالكتابة الأولى التي عكف

العجيب من الحفظ والوقاية ثم لم تستطع أي يد أن تدنو بأي عبث غليه أو تغيير لكلمة منه، على الرغم من كثرة من ابتغى ذلك. اللهم إن العقل لا يدرك أي موجب لهذه الوقاية إلا أن المصدق الدقيق الذي أعلنته القرون لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩٠) ولقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ غَزِيرٌ ۖ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (صفت: ٤١-٤٢)،
وأما المزية الثانية، فهي تلك التي ينبغي أن تُسمى "مظهر جلال الربوبية" في القرآن.

وإنما لأبرز مظهر من مظاهر إعجاز القرآن. إنه المظهر الذي يسري الشعور به إلى العامة الذين لا يتمتعون بلداية واسعة للغة العربية، بل يسري الشعور به حتى إلى نفوس كثير من الأعاجم الذين لا يمكنون من الثقافة القرآنية إلا بإعظام العميق بالله ﷻ.

إن مظهر جلال الربوبية في القرآن، يعني خلوه من الطابع والصفات البشرية كلها، إنك إن تأملت في الآيات التي تقرأها أو تصغي إليها من القرآن، رأيتها مرآة لجلال الربوبية وصفات الألوهية. ومهما تأملت، فلن تجد في شيء منها إلا ما

يصاد الطبيعة والاحتياجات البشرية ومظاهر الضعف الإنساني التي يفيض بها كلام الإنسان أيا كان، وأيا كان نوع الحديث الذي يتناوله. إن من المعلوم أن الكلام مرآة دقيقة لطبيعة المتكلم وصفاته واحتياجاته، وما تتجلى الأغوار النفسية لشخص ما على شيء، كما تتجلى على ما يكتبه أو يقوله. لذا فإن من العسير أن يقلد كاتب كتابا آخر في أسلوبه إذا كتب.. لقد حاول كثيرون أن يقلدوا أسلوب الجاحظ مثلا، فلم يأت ذلك، لأن الأسلوب ليس طريقة معينة في صوغ العبارة فقط، بل الأسلوب - قبل ذلك - مرآة دقيقة نفسية صاحبه، فلن استطاع أحدهم أن يقلد الآخر في صوغ العبارات، فهبات أن يستطيع تقليده في خصائصه النفسية وطابعه البشرية.

فإذا كان هذا واضحا، فأحرى - في باب البدهة والوضوح - أن لا يستطيع الإنسان - أيا كان - أن يتحدر عن بشريته وصفاته

عندما يهيمن القرآن، ويأخذ بمجامع النفس، ويملا الفؤاد هيبه وتعظيما له، فإن الذي يبعث ذلك كله في النفس، إنما هو مظهر جلال الربوبية فيه، وهو من أجلى مظاهر إعجازه.

برادة القرآن من المظاهر البشرية
ولكن القرآن ميراً من سائر مظاهر البشرية والضعف الإنساني وحاجاته الفطرية. إنه الكلام العجيب الذي يشع بجلال الربوبية ومظاهر الألوهية من خلق وإيجاد وإحياء وإماتة وسيطرة وإحاطة.. وإنه لشعاع بين يخترق إلى السامع والقارئ حواجز اللغة وفوارق ما بينها.

إليك هذه النماذج من الآيات التي تنزل من علباء الربوبية، وليسأل كل منا عقله: أفيمكن أن تكون هذه الآيات مما يستطيع أن ينطق به بشر من الناس؟!

﴿قَوْلِكَ لَنُخْشِرَنَّ لَهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّ لَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَا ۖ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَنِي ۖ ثُمَّ لَنَحْنُ أَغْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صَبِيًا ۖ وَإِنْ

مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ آمَنُوا وَنُدْرُ الطَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا﴾ (مريم: ٦٨-٧٢) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٤) ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْغَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَتُخَذِّلُوهُ خَلِيلًا ۖ وَلَوْلَا أَن نَّبْتَلَاكَ لَفَعْدَ كَذِبٍ تَرَكْنَا إِلَيْهِمْ سَبِيلًا قَلِيلًا ۖ إِذَا أَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدَ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۖ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ سَنَّةٌ مِّنْ قَدَرٍ أَوْسَلْنَا قِيلَكَ مِنْ رَّسُلِنَا وَلَا تَجِدَ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (الاسراء: ٧٣-٧٧) ﴿يَسْتَعِذُّونَ بِأَيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۖ وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر: ٤٩-٥٠) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۖ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ



لا مستحيل مع الإيمان

حدّد هدفك، وارسم خطتك،
واجتزّ أعالي الجبال،
واعلّ فوق التلال،
فلا وعزّ يصدك،
ولا شاحق يمنحك...
تزود لطريقك...
فلا زاد أغنى من الإيمان،
ولا هتاف أعذب من الابتهاج،
وفي الطريق إياك أن تسهو،
وعن قراءة الكون حذار أن تغفل...

رُؤْيُ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٦﴾ (الناس: ٥٦-٥٧) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي
وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ
حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ
فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٣﴾ (٤٠-٤٣)

فلنتأمل في هذه الآيات وأمثالها، ولنستن ما يشعّ فيها من
جلال الربوبية والسطوة الإلهية، ثم دعونا نتساءل: أفيمكن أن
يكون هذا الكلام مما يمكن لبشر من الناس أن يصطنعه اصطناعاً،
وأن ينطق به تمثيلاً أو أن يتحلّى به تزويراً؟

أمّا إن الطبع للعالم، وليقم أي فرعون من الفراعنة المتأخّرين
أو المتحجرين، ثم ليحرب أن ينطق بمثل هذا الكلام الذي ينزل
من علياء الربوبية، ويغمر نفس السامع والقارئ بمشاعر الهيمنة
والجلال، فإن لسانه سيدور في فمه على غير هدى، بهما حاول،
فسيأتي بكلام يكشف بعضه بعضاً، فيه محاولة التمثيل، ولكن
بشريته ومظاهر ضعفه الإنساني تعزّيه وتكذّبه.

وعندما يهيم القرآن، ويأخذ بمجامع النفس، ويملأ الفؤاد
هبة وتعظيماً له، فإن الذي يبعث ذلك كله في النفس، إنما هو
مظهر جلال الربوبية فيه، وهو من أحلى مظاهر إعجازه.

صفحة مشرقة

واليك هذه الصورة التي تبرز هذه الحقيقة في هذا الواقع المشاهد
الذي سجله التاريخ:

نزل عثمان أرطغرل جد الخلفاء العثمانيين، ضيفاً على قريب
له في "بورصة"، ولما حان وقت رقاذه، ودخل عثمان الغرفة التي
هيئت له ليلايم فيها، رأى شيئاً معلقاً على أحد جدرانها، فذنا
منه ليتبينه، وإذا هو مصحف يزّين الجدار، فأتخذ منه مرقف
الجندي من قانده، وأثبت كفا على أخرى ملصقتين بصدرة،
وبقي كذلك واقفاً لا يتحرك إلى الفجر.

ذلك هو سلطان جلال الربوبية، تعلّى أثره في شخص عثمان
أرطغرل، وفعل فعله في كيانه. أما ثمرة ذلك على شخصه
الإيماني وكيانه الوجداني، فقد برزت في سلالاته الطاهرة التي
أورثها الله مقاليد الخلافة الإسلامية، وحدث بها عهد الازدهار
الإسلامي في بقاع الدنيا. ■

(٥) كلية الشريعة - جامعة دمشق / سوريا.

الأستاذ فتح الله كُونْ وإنشاء حدائق الإبداع الحضاري

أ.د. عبد الحليم عويس*

قال الراوي:

كانت خريطة الأرض يوشك أن ترسم بريشة الأخاد.
ونظّر "حوجه أفندي" حوله وتسأل أليست ورائة الأرض

ق

للصالحين؟

واتخذ قراره لن ترك الأرض لظلمة الإيمان... وراح بغوص في جهود أبطال
الإحياء، والبعث بالإيمان..

قرأ إحياء علوم الدنيا في تراث الأسلاف، وقرأ إحياء علوم الدين للغزالي،
وحجة الله البالغة للذهلوي، وأجر في عالم المعاصرين المحدثين في تركيا
والشام والمند والجزائر... وأسعدته تلك القراءات المعاصرة للقرآن، تلك
التي جمعت بين التفسير، والتربية والفقه والتذكير... قرأ التحرير والتنوير لابن
عاشور، ومجالس التذكير لابن باديس، وقرأ الظلال، وقرأ -قراءة عميقة-
"رسائل النور" لأنها الأقرب إلى نفسه، في الزمان والمكان والتحديات.
وقد أتيت لصاحب رسائل النور -نتيجة ظروفه- أن يعيش مع الطبيعة، وأن
يتصل بالكون، ويتخال الكون، من خلال كلمات الله الكونية... فحات رسائل
النور كأنها تنزيل من التنزيل.. ونفذت أشعتها -مع أشعة الشمس- إلى قلوب
الناس وكيانهم وعقولهم... فتأصلت... وحملت العناية الربانية كلمات الرسائل
وبذورها الإيمان مع الرياح السائرة هنا وهناك، لتسقط منها حبة هنا، وحيات هناك.

قال الراوي:

والآن يا صاحب الرسائل، يا سعيدنا الجديد!

ها أنت تودع الأصحاب، وملايين الطلاب، بعد أن واجهت -بالأمل في مستقبل
الإسلام- وبالنفقة الكاملة في وعد الله ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (البقرة: ٢٣)..
وبانتصار عالم القرآن على كل فلسفات الإلحاد والمادية.

والآن، يا كل دعاة الإيمان، يا أفغان، يا محمد عبده، يا رشيد رضا، يا
أرسلا، لينم كل منكم في قبره مأجورا، مسرورا!

وأنت يا صاحب الرسائل:

والآن، بعد ذهاب القرن الأسود.

ثمَّ مسرورا في قبرك وتَنعم،
فالوعد الحق سيجعل قبرك إشعاعا من فكرك، قرا عصفورا
في الأعماق.

فرسائل نورك مصباح لك في دنياك وأحراك،
في ساعة يُسرك أو عُسرِكَ!
ياصاحب الرسائل، يا زارع البذور في حقول الإيمان!
ها أنت هنا مسرّحا من وظائف الفناء،
كما علّمنا في رسائل الضياء.
ها أنت هنا تعيش ناعماً في عالم البقاء،
عابراً دونما إبطاء ودونما انقطاع،
مُبْحِرا من عالم الشقاء والصراع.

أحلام قبورية

ياصاحب الرسائل! إخلاصك حتى في قبرك نورانية...

ذات ليلة - ياسيدي،
يوم كنت تعوص في رسائل الإمداد،
تكتب بالعين والسمع والفؤاد،
تنقل من عالم العطاء والإسعاد،
غفوت والنور في راحتك،
رحلت بروحك من عالم الأشياء.
ورحت تكلم الموتى مع الأحياء..
لا جسم لك..

لا حرمَ لك، لا نسمة من أهواء.
ها أنت هنا تعيش في عالم القبور..
قبرك من نور.

وفؤادك يرنو للبيت المعمور
يرنو للوح المحفوظ المسطور.
يسأل في خفة حب وسرور

وأنت تهرول حول اللوح، وتجري وتدور:
بالوح الكون ويا قلم القدرة، يا مخزن أسرار الكون المستور.

ترفع صوتك في قبرك، في الملأ الأعلى، وتنادي:

أخبرني عن أهلي، عن مليار مقهور
يؤمن بالله ويشهد بالتوحيد، ويصلّي، ينتظر البعث المقدور
يؤمن بالنصر الآتي. لكن، لا يعرف كيف يسير؟!
أخبرني يا لوح الغيب الأعلى، عن يوم النصر المبرور.

في الغفرة وبإحساس القلب المقهور.

في تلك الرمضة واللمحة،

ظهرت في القبر ملامح عصر يأتي، يُبعث الإنسان المسلم،
إنسان النور.

- ها هي - يا سبحان الله- مظاهر أحلامك.
أقوى من كل الأحلام...

رسالة من القبر

وهتفت بأنشودة آمال رمزية...

وتقول لإنسان الإيمان المنتظر الأعلى:

يا من يخفي خلف عصر شاق.

لما بعد ثلاثمائة سنة يستمع إلى كلمات النور بصمتٍ
وسكون.

يا من تتسمون بسعيد وبخمزة، وعمر
وتُدعون بعثمان وطاهر أو يوسف أو أحمد.

إني أتوجه بالخطاب إليكم:

ارفعوا هاماتكم وقولوا:

"لقد صدقت"... وليكن هذا التصديق دُنياً في أعناقكم.

إني أتكلّم معكم عبر أمواج الأثير

الممتدة من الوديان السحيقة للماضي المسمى بالتاريخ.

إلى ذرى مستقبلكم الرفيع..

ها حيلتي...

لقد استعجلت وشاءت الأقدار،

أن آتي خضّم الحياة في شنائها..

أما أنتم فطوبى لكم وألف طوبى..

ستأتون إليها في ربيع زاهر كالجنة.

إن ما نزرعه الآن يُسْتَنْبَت من بذور النور،

فتفتّح أزاهير يانعة في أرضكم.

نحن ننتظر منكم لقاء خدامتنا،

أنكم إذا حنتم لتعبروا إلى سفوح الماضي،

عرجوا إلى قبورنا، واغرسوا بعض هدايا ذلك الربيع

على قمة "القلعة" المستضيئة لرفاتنا وعظمانا...

سنوصي الخارس ونذكره.. نادونا..

ستمسمعون صدى "هنيئا لكم" ينطق من قبورنا...

لقد كانت هذه الكلمات "الأخروية" أنشودة نورية ذات

وقع خصاص، وكان لها تأثيرها الكبير في النفوس طلاب الآخرة، طلاب الإيمان، البارزين الزارعين الواهدين العابدين لله...
والتربص بالعاملين له..

فقد كتب الأستاذ الواعظ الإنسان كتابه عن "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" مبينا وظفته الحضارية وأطره الإنسانية ودفاعه عن المهجرين ونشر المعاني الواسعة له، جهاداً بالعلم والمال والفكر والبناء الحضاري...

وهكذا عمد الأستاذ الواعظ "حوجه أفسدي" "العالم الإنساني" إلى العمل على بناء إنسان جديد من خلال عدد كبير من الدراسات التي ترحم أفلها إلى العربية ومازال أكثرها حبيس اللغة التركية، مع أن العرب أحوج من غيرهم إليها ليدركوا- من خلالها- كيف تكتشف "أضواء القرآن في سماء الوجدان" ويدركوا حقيقة الخلق الإلهي، ودحض "نظرية التطور" التي سيطرت على العرب عدة عقود...

وليعرفوا - كذلك- أبعاد مشكلة "القادر والقضاء، في ضوء الكتاب والسنة"، وكيف أنه لا يسلب الإرادة الإنسانية، ولا تفتر بالعقل عن إرادة البناء الحضاري...

وكيف أن الإيمان الحق به عنصر فاعل إيجابي، يدفع إلى الكسب والأخذ بالأسباب دون عبادة الأسباب أو نسيان قدرة مسبب الأسباب، الذي لو شاء لأوقفها بحكمة يريد بها وإظهار تجليات قدرته ﷻ.

عبور الفجوة وملء الفراغ

كان العالم قد انتهى بنهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥م) إلى وضع مأساوي، وسيطر اليأس على العالم. وبدلاً من أن يلجأ إلى العدل والرحمة توحشت لديه معاني القوة، وأصبحت فلسفة نيتشة (والفاوستية) -القائمة على البقاء للأقوى- هي المسيطرة..

وضاع معنى الحق أمام القوة، ومعاني العدل والرحمة أمام الجشع الذي أقبل عليه المنتصرون.

وسحبت كل الوعود الخداعة (بالعدل والمساواة والحرية) التي بذلت أثناء الحرب وقبيلها للشعوب المغلوبة على أمرها والقوى المستضعفة -بالطبع- لاعتبارات مصلحة توجيها الحرب. وانفجر الموقف العالمي، وعمت الثورات، بعد أن خدع

وقع خصاص، وكان لها تأثيرها الكبير في النفوس طلاب الآخرة، طلاب الإيمان، البارزين الزارعين الواهدين العابدين لله...

كولن، وحدائق الإبداع الحضاري

قال الراوي:

كانت كلماتك -يا صاحب الرسائل- آمالاً علوية.

كانت أدعية خاشعة ترشح بالإخلاص.

في قبرك لم تنس الأمة.. فتقلب وجهك في الأفق الأعلى...

تدعو بلسان الروح،

لسان القلب المحروح..

فقبلها الله، وحققها في أرض الناس.. ليس بعد ثلاثمائة سنة،

لكن في سنوات خمسين..

أجل.. فقط، في سنوات خمسين..

منحة رحمن وكرم!

هبّ ريح الإيمان،

وظهر الفيض الرباني، وتلجّى في "فتح الله"...

منحة رب رحمن، لإمام يحيا في "النور الخالد"...

يعشق أعظم إنسان، معجزة الإنسانية..

أحلامه أكبر من كل الأحلام،

أقوى من كل الآلام.

يعرف كيف يثيب على "أسفلة العصر"، ويمل الأعاجز

السحرية...

حاء يخاطب كل الناس...

ويخاور عقل العالم، بوسائله العملاقة..

فاعقل المسلم قادر.. -يأخذ بالأكتاب- لو عرف "الموازن" و"أضواء الطريق"، وتسلب بـ "النور الخالد" وبـ "طرق الإرشاد في الفكر والحياة" العملية.

وهناك تألق "فتح الله" يبني ويقم صروحاً للروح، في كل

الأيام وكل الأعمال...

يضعد بالقائعين السفوح، إلى عالم "التلال الزمردية" ليعيشوا بالكلمة والعقل: حياة القلب والروح معاً، في توازن غابت معاملة منذ عقود!

بناء إنسان النور الخالد

ولما كان الناس قد احتلظت لديهم حقيقة الجهاد وروحه، وجروا

العالم باتفاقيات سلام.. لكن
الأمركان تقسيماً للتركة العالمية بين
الأقوياء والمتنصرين على حساب
المقهورين الذين عدوا ذلك خيانة
وغدرا ونكثا للعهود. فأصبحت
الأخلاق الإنسانية في الصميم..
وهنا وجد الأستاذ "فتح الله
كولن" أن البشرية لم تعد مرشحة
لإنشاء قوى تعمل على العدل
والرحمة. لقد فقدت الإنسانية عقلها
وقلبها ورشدنا.

مقاومة الغارة على الإنسانية

ونظر الأستاذ فلم يجد أمامه إلا الفكر
الإنساني التربوي النبوي الشريف

وأفكار الساترين في الطريق نفسه. ورأى أنه في مواجهة هذه
التقوى العالمية لا معنى للصدام أو الثورات أو الصراع، بل لابد
من طريقة إنسانية نبوية لمخاطبة الإنسان نفسه.. قلبه وروحه وما
بقي يقظاً من عقله.

ووجد الأستاذ أن العالم المنتصر بعد أن هزم المهقورين بقوته
العسكرية بدأ يغزو كل إنسان وكل بيت، فلم تعد كئائب
المستشرقين، ولا قوافل المصمرين، ولا قوى النفاق الداخلية كافية
لتحقيق "عولته" والعبث بالعالم كله، بكل رجل وكل امرأة وكل
شاب، كما يشاء، يصوغهم كما تصاغ التماثيل المنحوتة على
النسق الذي يهواه فنالها.

وفي هذا السياق انتشرت أجهزة التلفاز والفنونات الداخلية
والفضائيات الموجهة.
وانتشرت الإذاعات والصحافة عابرة القارات ودور النشر
العملقة، وانتشر ما هو أخطر من كل هذه على الحياة وهو
"الإنترنت".

ولم يأس الأستاذ، بل قرر أن يكون مصباحاً يجوب العالم،
وينافس الظلام في كل مواقع. وبارك الله له في نيته، وفي رجال
الخدمة والأقوال والأعمال. فسخر الجميع كل جهودهم لتنمية
بذور الأمان، وانطلقوا إلى العمل في كل المحلات؛ فهذه حريدة
يومية مليونية، وهذه مجلات أسبوعية بالتركية وغير التركية.
وهذه قنوات تلفزيونية قادرة على إنتاج تمثيلياتها وبرامجها.

كانت خريطة الأرض بين يده وهو
يعالج أمراض إنسانية عجزت
عن وجود من يهتم بإنسانيتها،
ويضع الدواء لأمراضها الأخلاقية
والحضارية، ويعيد للإنسان
"الموازن" الصالحة لتحقيق حياة
أفضل يتعانق فيها الإيمان مع التقدم
مع الأخلاق.

وهناك جامعات ومدارس مبنوثة
في العالم التركي وخارجه. وتتميز
بالعصرية وبالأصالة التي تقرها
القوانين. وهذه مدن جامعية.
وهذه مستشفيات على أفضل
وجوه عرفتها الحضارة الحديثة.
وكانت خريطة الأرض بين يده
وهو يعالج أمراض إنسانية عجزت
عن وجود من يهتم بإنسانيتها،
ويضع الدواء لأمراضها الأخلاقية
والحضارية، ويعيد للإنسان
"الموازن" الصالحة لتحقيق حياة
أفضل يتعانق فيها الإيمان مع التقدم
مع الأخلاق، ويتم فيها التكامل بين
الحق والقوة.

كان الأستاذ-يقين- قد قرأ أحلام دعاة التغيير والتمكين،
التي كل منهم أمل أن يرى استجابتها الحية في حياته أو في
قبره، ويهني أصحابها الذين استحقوا من الله التمكين، والذين
سيمرّون أمامه ويشاهدون من قبره فيرى بشائر انتصار الإسلام
على وجوههم.

وعندها يطلب منهم الدعاء، لأنه وتلامذته هم الذين بذروا
البذور. وعاشوا شتاء الحياة في ظل الإلحاد وعانوا الكثير.
وها هم الحاصدون للزرع القادمون الوارثون للأرض الذين
يعيشون ربيع الإيمان.. يمرّون أمامهم ويشاهدونهم وهم في
قبورهم، فيفرحون، ويسعدون بهم، ويقولون لهم: هنيئاً لكم...
اذكرونا، أسألوها لنا الرحمة والفرح والفرح والفرح؛ فحن السابقون
الزارعون للبذور في الشتاء القاسي، وأنتم اللاحقون الوارثون
للأرض في ربيع الإيمان...

فالنور يلد نوراً.. وصديق ربنا:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا
عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

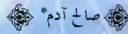
﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ غَائِبِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٦).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). ■

(١) أساتذ التاريخ والحضارة الإسلامية، ورئيس تحرير مجلة النبيا / مصر.

أتمودج جديد

الأكوان المتعددة



هـ

النظرية النسبية

أما حسب النظرية النسبية الخاصة والعامة التي وضعهما ألبرت أنشتاين فالفضاء والزمان نسبيا. فإذا كانت هناك حادثة تستغرق ساعتين حسب مراقب، فهي قد تستغرق في نظر مراقب آخر ثلاث ساعات أو ثلاث ساعات ونصف. وإذا كانت هناك حادثتان حدثتا في مكانين مختلفين (أحدهما في إسطنبول والأخرى في أنقرة مثلا)، وكان هناك مراقب في منتصف المسافة تماما بينهما، ولنفرض أن الحادثتين تقعان في اللحظة نفسها، فالحادثتان لن تكونا في وقت واحد لمراقب يتحرك؛ فإن كان المراقب يتحرك نحو الحادثة على يمينه، أي يتبعد عن اليسار فسيرى أن الحادثة في يمينه تتحقق قبل الحادثة الموجودة على يساره. وإذا كان العكس، أي إن كان المراقب يتحرك نحو اليسار ويتبعد عن اليمين، فسيرى أن الحادثة في يساره تقع قبل الحادثة في يمينه. إذن فالزمن يختلف في الفضاء حسب موقع المراقب.

وحسب النظرية النسبية العامة (التي قال عنها أنشتاين بأنها أكثر نظرياته إسعاداً له) فإن للمادة تأثيراً معيناً على الفضاء والزمان.

هناك نقاط تحولات كبيرة في تاريخ علم الفيزياء في صدد فهم الأبعاد المحيطة بخلق الكون. فهناك الآن نقطتان انطلاقاً لإيضاح الكون الذي خرج من العدم إلى الوجود، وهما تختريان على جميع زوايا النظر في هذا الصدد: الأولى: أن هذا الكون ظهر إلى الوجود من قبل خالقي له قدرة وعلم وإرادة محيطة بكل شيء.. والثانية: تشير إلى أن الكون ظهر نتيجة مصادفات عشوائية، أو تدعى أن الكون نفسه أزل وأبدى، فهو لا يحتاج إلى خالق. وهذه هي نظرة من ينكر وجود الخالق. إن علم الفيزياء الذي يتم تدريسه في المدارس فيزياء نيوتن والكون حسب هذه الفيزياء مثل الساعة، أي هو جهاز يعمل حسب معادلات رياضية معينة، ويطلق عليها اسم "قوانين الفيزياء". ويستند عمل الكون إلى قواعد معينة، لذا لا مكان هنا لأي احتمالات أو مصادفات. والفضاء والزمن حسب فيزياء نيوتن مسطحان ولاهنايان. فإذا كانت الساعة عندنا ١٠,٣٤ مثلاً، فهي أيضاً ١٠,٣٤ في المشتري وفي بحيرة أندروميда. والزمن في فيزياء نيوتن يشبه نهرًا يسيل بتدفق منتظم.





وتقوم المادة -حسب الكتلة التي تملكها- بالتأثير على هندسة الفضاء وعلى سرعة الزمن الجاري. فمثلا يكون تدب الفضاء حول الثقوب السوداء -التي تملك مادة كثيفة جدا- لاهاثيا. وهذه النظرية التي لها مثل هذه النتائج الغريبة تملك بنية رياضية مدهشة، وهي تتوافق حتى الآن مع جميع المشاهدات والتجارب. أما الجواب على سؤال: هل الكون نهائي أم غير نهائي؟ فهو يتوقف -حسب هذه النظرية- على مدى كثافة المادة التي يملكها الكون.

الفيزياء الكمية

ومع أن نظريتي أنشتاين تبدو كاملة، إلا أنها لا تستطيع وحدها تفسير كيفية نشأة الكون ففي اللحظة التي حدث فيها "الانفجار الكبير" لم تكن القوانين الفيزيائية سارية. لذا تبقى الأسئلة حول تلك اللحظة وما قبلها دون جواب. فلماذا حدث الانفجار الكبير؟ وكيف حصل؟ وماذا كان يوجد قبل الانفجار؟ للإجابة على مثل هذه الأسئلة، أو في الأقل التحلص من لغز الكون وذكر بعض الأشياء عن نشوئه فنحن نحتاج إلى الفيزياء الكمية.

يستمر وجود أفودج الساعة في فيزياء نيوتن في نظريات أنشتاين، وكذلك يستمر وجود السببية، أي العلاقة بين السبب والنتيجة، أو أن لكل حادثة سببا. ولكن الفيزياء الكمية التي تبحث عن طبيعة الذرة وعن طبيعة أجزاءها، تمثل تغييرا جذريا أكثر. فهي تُدخل المُشاهد أو المُراقب في العملية، وترتبط الأحداث بالاحتمالات. والظاهر أنه لكي نؤسس نظريات موثوقا بها حول بداية الكون فلا بد من الاستعانة بالفيزياء الكمية، كما يستعان بهذه الفيزياء في فهم ما يجري في مستوى أجزاء الذرة. ولكن كيف يمكن التأليف والتوفيق بين النظرية النسبية والنظرية الكمية، فهو غير معروف حتى الآن. هنا تبدو نظرية "الأكوان

ما هي "الأكوان المتعددة"؟

في سنوات الخمسينيات قام الفيزيائي "إفرت" (Everett) وبعض الفيزيائيين الآخرين بتقديم نظرية "الأكوان المتعددة" لإزالة الألغاز والتناقضات التي فتنها الفيزياء الكمية في دنيا الفكر والمنطق، وطرح نظرة جديدة لكيفية حدوث الحوادث في الكون. فالكون الموازي لكوننا يحمل صفات مشابهة له، وهو (أي الكون الموازي) يتكون أيضا من الفضاء والزمن والمادة والمجرات والنجوم والإنسان.. بل يمكن القول بأن هذين الكونين متداخلان ويشغلان الفضاء نفسه. والمواد الموجودة في هذين الكونين تتبع قوانين الفيزياء الكمية، أي هناك أكوان عديدة مثل كوننا. فمثلا بينما نقرأ هذه المقالة الآن ربما أنت تنسره في غابة في كون مواز آخر.

التواريخ البديلة

والتواريخ البديلة تشكل مثالا جيدا في فهم الأكوان المتوازية بشكل أفضل. فلو كان الجيش العثماني قد نجح في فتح مدينة "فيينا" فكيف كان التاريخ سيتغير؟ ولو استطاع محمد الفاتح فتح روما كيف كانت الدنيا ستغير؟ أو لو كسب هتلر الحرب العالمية الثانية فماذا كان سيحدث؟ كل احتمال من هذه الاحتمالات تحقق في كون مواز، وكل عالم مختلف ترد صورته على الذهن، وكل ما يحظر على البال من تواريخ مختلفة فهو موجود في مكان ما وفي كون ما. وعندما نفكر فيما نقوم به من اختصار وترجيح بإرادتنا نفهم الأكوان المتعددة. فمثلا من ربح واختار دراسة الطب وقدم امتحانا ونجح في الجامعة أصبح طبيا. ولو اختار دراسة علم الأحياء لأصبح عالما في البيولوجيا. ولو





أن رجلا اختار الزواج من امرأة مجرد حسننها وجمالها لفشل في حياته الزوجية ولَمَّا استنطاق التفاهم معها. بينما لو اختار امرأة متدينة ومناسبة وبمكّن التفاهم معها لعاش حياة سعيدة. لذا فالاختيارات المختلفة التي نقوم بها تتحقق في أكوان أخرى مختلفة.

الخيال العلمي والأكوان المتوازية

الطاقم الشرير، وذلك لكي يستطيع القيام بإصلاح بعض الأمور. وفي معامرة من معامرات أحد أفلام سلسلة "غيبش الظلام"، نشاهد امرأة تنتظر في موقف الحافلات، فإذا بها تواجه نسختها أو نظيرتها الأخرى التي تركزت كونها وأتت إلى هذا الكون. ونرى أن هذه المرأة الآتية من كون آخر تريد أن تحل محل المرأة الأصلية، وتتجح في هذا، بينما يكون مصير المرأة الأصلية قضاء عمرها في مستشفى المجاذيب.

وفي قصة "لقاء ليلة أغسطس ٢٠٠٢" وهي إحدى قصص "من يرميات مريخي" (أي شخص يعيش في المريخ) نرى أن شخصا من هذه الدنيا اسمه "توماس كوماز" سكن في المريخ وصادف هناك كرنا موازيا. وبينما كان يعي سيارته بالبنزين مهبدا للسفر سمع شخصا يقول له: "إن وحدت صعوبة في قبول المريخ كما هو تستطيع الرجوع إلى الدنيا، فكل شيء هنا مختلف؛ التربة.. الهواء.. القنوات.. السكان الأصليون" أنا لم أر أيضا منهم حتى الآن ولكني سمعت أصواتهم "الساعات... حتى ساعتي تعمل بشكل غريب، هنا حتى الزمن مختلف". وعندما كان توماس يسير في الطريق رأى آلة غريبة تشبه فرس النبي وبلون أخضر -أزرق- يقودها مريخي ذو عيون ذهبية فقال له: مرحبا. وأجاب المريخي بلغته: مرحبا. لم يفهم أي واحد منهما الآخر. جاء المريخي ولمس توماس، ولكن توماس لم يشعر بلمسه، ولكن بدءا يتحدثان بلغة واحدة. وعندما أرادا أن يتصافحا دخل يد كل منهما في داخل جسم الآخر وكأخما لا يملكان بدا. يرى أحدهما الآخر ولكن لا يستطيع أي منهما لمس الآخر، فعلما أخما يوجدان في كونين متوازيين متقاطعين، كل منهما يحس بجسمه، ولكنه يرى الآخر كشبح، وحاول أن يفهما السبب في

وقد تناول العديد من أفلام وكب الخيال العلمي موضوع الأكوان المتوازية؛ فمثلا نرى في سلسلة "ستارترك" (startrick) أنه بينما كان الكابتن كيرك وكادره يتهيئون للانتقال من إحدى الكواكب إلى سفينتهم الفضائية بعملية "التأين" الروتينية، صادف دخولهم إلى غيمة غاز متأين. فوجد الكابتن كيرك وكادره أنهم في سفينة مشابهة تماما لسفينتهم ولكنها مختلفة عنها إلى درجة مذهشة؛ فمثلا وجد أن "مسترسبوك" هنا مع أنه يشبه نظيره في السفينة الأخرى، ولكنه شخص شرير تماما مع أنه رجل منطقي. وعلى عكس أفراد سفينة "إنتربرايز" فإن أفراد هذه السفينة الفضائية "إنتربرايز" الجديدة كلهم أشرار. وفي هذه الأثناء كان الكابتن "كيرك" الشرير وطاقمه قد نقلوا إلى سفينة "إنتربرايز" القديمة وتم سجنهم هناك من قبل "مسترسبوك". وبعد وقت قصير سيفهم كل من سبوك الشرير وسبوك الخير ما حدث. فعندما تعرضت السفينة الفضائية "إنتربرايز" إلى عاصفة متأينة من الغاز صادف وجود هذه السفينة مع نظيرتها أو مع نسختها الأخرى في كون مواز. وعملية الاستنساخ عملية فائقة الدقة إن صرفنا النظر عن أن عملية الاستنساخ أبدلت الأشخاص الخيرون إلى أشخاص شريرين. وعدا ذلك فالاستنساخ دقيق وقريب من الكمال، ولو لم تقم العاصفة الأيونية بإنشاء علاقة زمانية ومكانية لما علم أفراد كلا الكونين أي شيء عن وجود الآخرين. لقد تم تبديل مكان الكابتن كيرك مع نسخة السيئة ووجد الكابتن كيرك السيء نفسه سجينا في السفينة الفضائية إنتربرايز للكادر الجيد. أما الكابتن كيرك الخير فقد وجد نفسه في سفينة إنتربرايز السيئة وضمن طاقمه الشرير. وفهم بعد وقت قصير بأن عليه أن يتظاهر بأنه أيضا من

وتفسّر الفيزياء الكمية هذه الحادثة الغريبة بالتأثير المتقابل الذي يُحدثه احتمالُ مرور هذه الفوتون من أحد الشقين على احتمال مرورها من الشق الآخر؛ أي إن الفوتون تبدو وكأنها تمر من الشقين في آن واحد مع أنها فوتون واحدة. والتفسير المنطقي الوحيد هو أن هذه الفوتون تمر من أحد الشقين في كوننا هذا، وتمر من الشق الآخر في كونٍ آخر. هذه هي الأكوام المتوازية التي حاولنا حتى الآن إيضاحها بشكل تدريجي. وعندما تصطدم بالشاشة تتحد هذه الأكوام وترجع كونا واحدا.

قطة شورودنجر

ومثال آخر يُظهر لنا الأكوام المتوازية هو تجربة اسمها تجربة "قطة شورودنجر". صممت هذه التجربة كما يأتي: هناك غرفة مغلقة وبداخلها قطة، وهناك في الغرفة مادة مشعة مع مادة سامة. ولنفرض أن احتمال تحلل المادة المشعة هو ٥٠٪ حسب الفيزياء الكمية، وأن هناك آلية تقوم بإطلاق المادة السامة حالما تبدأ المادة المشعة بالتحلل، وهذا يؤدي إلى موت القطعة. والآن هناك احتمال بنسبة ٥٠٪ بأن المادة المشعة تتحلل فتتو القطة، وهناك احتمال بنسبة ٥٠٪ أن المادة المشعة لا تتحلل، أي تبقى القطة سالمة ولا تموت.

والآن -حسب الفيزياء الكمية- فاقطعة (حتى فتح باب الغرفة والنظر إلى وضع القطعة) تكون ميتة بنسبة احتمال ٥٠٪، وحية بنسبة ٥٠٪. أي هي في وضع مركب فيها الحياة مع الموت. وهذا طبعاً وضع لا يتماشى مع المنطق ولا يمكن إيضاحه، أما في النموذج الأكوام المتعددة فنقول: إن القطعة حية في كون، وميتة في كون آخر، أي يقوم هذا النموذج بحل هذه المعضلة.

الثقوب السوداء وعلم الكونيات

إن نظرية النسبية العامة التي طورها أنشتاين هي التي طرح موضوع الثقوب السوداء في الساحة العلمية. وتتكون الثقوب

أن دنيا كل منهما تؤثر في الآخر تأثيراً متقابلاً، ولكنهما مع هذا لا يستطيعان التماس، ولا يصلان إلى نتيجة. عندما ينظر المرئي حواله يرى مدينة جميلة حافلة بأشياء خارقة. أما توماس فهو لا يرى حواله سوى بقايا مدينة مهتدة تحولت إلى صحراء صامتة. صاحب المريخي: "هذه القنوات فارغة كلها" أجابه المريخي: "إنها مملوءة بشراب أرجواني اللون". لقد أدرك أن ما صادفهما في لقائهما يعود إلى سبب متعلق بالزمن، ولكنهما لم يستطيعا الوصول إلى قرار أي منهما بقي في الماضي وأي منهما هو في المستقبل. ويتصور كل منهما أن علله هو العالم الحقيقي وأن عالم الآخر هو عالم الخيال. وهذه القصة

التي تبدو غريبة يمكن إعطاؤها بعض الصحة من زاوية الفيزياء الحديثة.

الفيزياء الحديثة والأكوام المتعددة

تعد تجربة "الشقين" من أهم التجارب التي توضح الصفات المميزة للفيزياء الكمية. يوجد في التجربة مصدر يبعث أجزاءً دون ذرية (مثلاً يبعث فوتونات أو إلكترونات). وأمام هذا المصدر لوحة فيها شقان متقاربان لمرور هذه الفوتونات أو الإلكترونات، وهناك خلف هذه اللوحة شاشة تصطدم بها هذه الفوتون. فعندما يكون الشقان مفتوحين تتكون على

الشاشة زخرفة معينة هي عبارة عن مناطق مظلمة وأخرى مضيئة بشكل متعاقب. ولكن إن وضعنا الزخرفة التي تتكون عندما نسد أحد الشقين فوق الزخرفة التي تتكون عندما نسد الشق الآخر لا نحصل على الزخرفة الأولى، أي على المناطق المظلمة والمضيئة المتعاقبة، أو عندما نقوم بعمل قياس لمعرفة من أي شق تمر منه هذه الفوتون نرى أن هذه الفوتون تبدو وكأنها تمر من أحد الشقين، وهذا يؤدي إلى إفساد شكل الزخرفة الأولى. والنتيجة التي نحصل عليها هي أن حركة هذه الفوتون تتغير وتختلف عندما يكون أحد الشقين مسدوداً عن حركتها عندما يكون كلا الشقين مفتوحين.



هي خارج الوجود المادي الذي نعرفه وخارج تصوراتنا، مثلا قد تكون في عالم الأثير أو عالم الفوتونات والأجزاء دون الذرية. أو حتى في عالم لا ندرك ماهيته أبداً، وهناك عوالم سنلتقي فيها الحساب ثواباً أو عقاباً. مثلُ هذه العوالم أصبحت قريبة حالياً من أذهاننا بواسطة علم الفيزياء الحديث. والحقيقة أن أسس العديد من مواضيع العقيدة تعتمد على الإيمان بالقدر، والموت، والآخرة، والبعث، والنشور، ويوم الحساب. هذه الأسس لا يمكن للوجه البارد لعلم الفيزياء الوضعي تفسيرها أو التلليل عليها، وهي لا تحتاج إلى مثل هذا التأييد والتلليل أصلاً.

نشأة هذه الفكرة

إن فكرة الأكوان المتوازية بدأت أولاً في كتب الخيال العلمي، ثم أصبحت موضوعاً للفيزياء الكمية، وهذه إشارة مهمة؛ ففي السابق كان العديد من الحوادث التي كنا نجد صعوبة في تفسيرها أصبحت الآن في عالمنا الحقيقي شيئاً عادياً. مثلاً تحزن جميع الصور والأصوات في حاسبات عملاقة، ثم وضعتها كشاهدة أمام الإنسان، أي أصبح من السهولة فهمُ وتصوُّرُ إمكانية حفظ جميع أعمالنا في حياتنا، وتسجيلها في عالم آخر خارج عالمنا هذا. إذن فما كان خيالاً في السابق أصبح حقيقة. فكل ما يحظر على البال أو لا يُنظر يكون ممكناً، لأن قدرة الله تعالى الذي خلق كل شيء قدرة لا نهائية وعلمه لا نهائي ويستطيع فعل كل شيء. وعندما يخبرنا الله تعالى بهذا في كتابه المحفوظ الذي لم يتغير فيه حرف واحد لا يبقى عندنا أي تردد أو شك. وسرني عندما يأتي أجبنا كيف أن روحنا تنتقل من هذا العالم إلى عالم آخر بكل سهولة وكأننا انتقلنا من غرفة إلى أخرى. على أننا يجب ألا ننسى بأن سهولة هذا الانتقال أو صعوبته متعلقة بما سنواجهه في ذلك العالم الآخر من مواقف ومناظر، وذلك حسب أعمالنا في هذه الدنيا. وسنُعلم عندما نواجه الحقائق في ذلك العالم كيف أن قولنا: "الحمد لله" بعد تناول تافحة ينقلب في كونٍ آخر وفي عالم آخر إلى شجرة أو إلى قصر منيف. ■

السوداء عندما ينهار نجم كتلته ثلاثة أضعاف كتلة الشمس في الأقبل بعد أن ينفد وقوده. وهي تملك بنية زمانية ومكانية تقوم بابتلاع كل شيء حتى الضوء، إذ لا يستطيع حتى الضوء الخروج منها. وعندما يقترب شيء من ثقب أسود تتغير بنيته الزمانية والمكانية نتيجة قوة الجاذبية الهائلة للثقب الأسود. ويرى بعض علماء الفيزياء أن الثقوب السوداء ممر مفتوح نحو الأكوان المتوازية، وهم يقولون بأننا لو استطعنا المرور من خلال ثقب أسود لوجدنا أنفسنا في كون آخر.

إن وجود أكوان متعددة ينير الطريق أمام علماء الكونيات الذين يهتمون بخلق الكون وبنيته. ومن أهم المسائل التي تحتاج إلى إيضاح في علم الكونيات هي مسألة أن بنية الكون قائمة على توازنات دقيقة وحساسة جداً بحيث ساعدت على وجود الأحياء ووجود الأحياء العاقلة والمدركة؛ أي تم اختيار كون واحد من بين العديد من الأكوان المحتملة ليكون مهداً ومقرراً للأحياء العاقلة. ولو كانت خواص الكون مختلفة لما كان هناك أي احتمال ولا أي إمكانية لعيش الأحياء العاقلة فيه. فمثلاً تكاد الجاذبية في الكون تكون مساوية لطاقة التوسع الكوني، كما أن هناك معايير دقيقة جداً في الثوابت الكونية. ولو فققنا هذا الموضوع لعلمنا بأن الكون قد تم تهيئته وتخصيره ليكون مناسباً وملائماً لنا ولوجودنا. إن نظرية الأكوان المتعددة تقول بأن جميع احتمالات الأكوان موجودة. وفي هذا المضمار هناك أكوان لا توجد فيها أحياء، وإن سبب مشاهدتنا بأن كل شيء مضبوط بلطف يعود إلى أننا نعتقد بعدم وجود أي كون (أو أكوان) لا يقوم على توازنات دقيقة؛ بينما تدل الشواهد على وجود أكوان وعوالم أخرى مختلفة. وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذه العوالم عندما أشار إلى وجود الملأئكة والجن وهم مخلوقات لا تُرى بالعين. كما وصف القرآن المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغييب، إن وجود مراتب مختلفة للحياة يحياها بعض الناس، وكذلك وجود العديد من المعجزات والكرامات والرؤى الصادقة التي تنير عن المستقبل تدل على وجود عوالم أخرى غير عالمنا هذا، فنحن مثلاً لا نعرف أبعاداً وخواصاً عوالم أخرى كعالم القمر والبرزخ، ولا عوالم الجنة والنار. فهذه العوالم موجودة في الوقت نفسه ولكن في أبعاد زمانية ومكانية مختلفة، وهذه الأبعاد الزمانية والمكانية

(٥) باحث في جامعة الفاتح / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

سجناء الوجود



أديب إبراهيم الدبّاع

ن

هذه القضية من توكيدات النورسي رحمه الله، تناوذا بقلمه من زوايا فكرية متعددة في أكثر من مكان من وسائله "رسائل النور" وهي تشكل -بالقطع- واحداً من أعمدة فكره العملاق، حيث استطاع من خلالها أن يعلّ إشكالات الوجود عامةً ووجود الإنسان خاصةً وينيب على سِرّ الخلق والإيجاد.

فسرّ الخلق -عند النورسي- الحبّ والجمال؛ ففي الحب قوة الخلق، فهو تعالى فياض بالحب والخلق معاً. ولأنه تعالى أحبّ الإنسان خلقه، واضطفاه لنفسه ليكون مرآة صافية تتشرب جماله الأقدس في أسمائه الحسنى وتعكسه إلى الآخرين من المشاهدين، وهذه المدرجات العميقة للجمال الإلهي الأقدس تمنح الإنسان السيادة على نفسه، ثم السيادة على العالم.

السقوط في الخلودية

إنّ أشدّ ما يخافه "النورسي" على الإنسان السقوط في المحدودية

لنحس البشر مكبلون بالوجود، ومشردون إليه، ومقيّدون بأحكامه، لا نستطيع أن نفك أنفسنا عنه، أو أن نتجرّ منه، وحيث لو أردنا أن نعود -كما كنّا- عندما محضاً فما من وليجة في جدار الوجود نلج منها إليه. ومنذ قدّر لنا أن نرتدي الوجود، أو أن يرتدينا الوجود ونحن مسجناؤه أردنا أم لم نرد، وحيث إرادته وفعله فينا أردنا أم لم نرد. فنحن في علم الله تعالى موجودون قبل أن نوجد، وما دمنا موجودين في علمه تعالى فنحن إذن مسكونون بالوجود من قبل وجودنا ومن بعده، غير أن هذه "الموجودية" تتشكل بأشكال مختلفة، وتظاهر بصور متعددة، فنحن موجودون قبل الحياة وبعد الحياة، وفي الموت وبعد الموت، ومهما ارتقت صور "وجودنا" من أدنى درجاته الثرابية إلى ذروته الأخروية، فهو واحد لا يتغير ولا يزول ولا يعزبه العدم، لأنه مرصود بالأساس للبقاء والخلود.

في الوقت الذي أهله خالقه لكي يحوم فوق آفاق المطلق الإلهي. فالإنسان البطولي لا يذهلنا ويثير إعجابنا وعجبنا إلا إذا رأينا معكسا لجلال الخالق وجماله، وهذا هو الإنسان الذي ينبغي أن نحصر على رؤيته والتفكير منه، لأن النظر إلى وجهه عبادة كما يقول علماؤنا.

إن حرصنا على كشف الجوهر الجمالي في تكوينة الإنسان يقودنا إلى عوالم الجمل الماورائية، والتعرف على أمداء عمقها في النفس والكون. وهذا الجوهر الجمالي لا يكشف عن نفسه إلا من خلال ما يخوضه الإنسان من تجارب إيمانية مركزة تصهر طبيعته الطبيعية في أتومها لتخرج بعد ذلك مرةً من شوائها.

فإنسان من هذا النوع هو قوة للحياة يزيد في عمقها وغناها، أو قل هو الحياة بقوها واتساعها. فأى حياة إذا خلّت من خطوة جديدة في سلم الإيمان فهي حياة خاوية غير حديرة بأن يميها الإنسان. إن النضال الروحي الممتد امتداد حياته هو شكل من أشكال الوجود المركز ينتج عنه حب فهم لكونية الإنسان ولعظمة قواه الوجودية المتجذرة في أعماق الوجود، ويظل الإنسان محراباً يتعبد فيه الوجود خالقاً ما لم ينكص على عقبيه فيعمل معولاً هنديا المعبد والمحراب في ساعة من ساعات جنونه ليتحول هو نفسه إلى أنقاض إنسان، وشظايا مخلوق لا معنى له ولا هدف.

فالإنسان فكرة سامية في ذهن الوجود قبل أن يكون أي شيء آخر. فلا يستطيع داهم الفناء أن يدمه، ولا عناصر العلم أن تظله. فإذا ما أدرك الإنسان حقيقة وجوده، وعرف أنه مصون الوجود، محفوظ للخلود شعر بأهمية وجوده، وأحس بأنه راسية من رواسي الأرض الشامخات، تنهار الأرض إذا انهار وتنهاى الدنيا إذا انهار. فالوجود بقدر ما هو ثوب إلهي ألبس الإنسان، وإكرام له، وإنعام عليه، فهو كذلك مسؤولية عظمى توجب على الإنسان صيانة "موجوديته" والحفاظ على طهارتها وقديسيتها. فلا يأتي من السلوكيات والمعتقدات ما يتنافى وشرّف هذه "الموجودية" حتى يلقى بها بارتها كما كانت في أول تلبسها به، وهذا هو ما تسعى إلى تحقيقه كافة الأديان. ويحذر "النورسي" الإنسان من أن يعيش محصور ذهن بـ "هنا، والآن"، وبأن يعرف شيئا عن "هناك" وعسا بعد "الآن" تاركا "ما ورايات" هذا العالم وراء ظهره، مستهينا بكونه حبيس الوجود، ومرصودا للخلود ومأمورا بالخلاص من إसार الزمن لينطلق حراً نحو الأمد الموعلة في بعدها الأخرى فيحظى بالقرب والمشاهدة.

فالجمالية السرمدية تأتي أن تُشاهد بعين زمنية محدودة الرؤية، وقاصرة عن الإحاطة والإدراك، فتتشتت في الإنسان نوعا من السرمدية لكي يكون قادرا على استشفار هذه الجمالية وتشربها كفاء أشواقه المتهبة إليها كما يشير "النورسي".

الانتحار الوجودي

مرة وعلى حين غرة صرخ مفكر غربي في حومة من اليأس البئيس: "لو كنت موجودا فأخبرني من أنا؟ ولماذا أنا موجود؟". إن هذه الصرخة المفزعة تكاد تكون لسان حال جمهرة لا يستهان بهم من مفكري الغرب المعينين بشؤون الإنسان الفكرية والروحية. إنها إشارة غير مقصودة إلى تدهور حضاري بدأ يأخذ أبعادا مختلفة في شتى مناحي الحياة. وهو شعور غامض بالانفصال عن دورة الحياة وعجلة الفاعلية الوجودية، والتخدر سريع للعقل نحو ظلمات "اللاجدوى" وانتحار عقلي خفيف. وكل ذلك بسبب المحدودية الزمانية والمكانية التي وضع فيها نفسه والانكفاء على "هنا، والآن" وغياب الأخرى عن الحضور لدى عامة البشر. وهذه هي مأساة العالم اليوم.

المروعون

إن مثالية الإنسان وألعيته وعنصره الكريم يوجب على كل مُحبب له أن يسارع ليحجز بينه وبين السقوط في مهاوي مملوديات فكرية ونفسية تمنعه من الاندفاع الروحي والفكري نحو آفاق المطلق الإلهي على الرغم من أن الاستشراف الفطري في دواخله يهيب به في كل مرة أن ينهض من تحت قهر محدودياته ليلامس قيم المعاني العظيمة التي يعلي الدين من شأنها في النفس والكون. أمّا المروعون من وجودهم، والمنسحقون تحت ثقله وتبعاته أولئك السوداويون المكتئبون المساطون على الدوام بشواظ من جحيم كيانهم الداخلي، كيف تنتظر منهم فكرا جادا يثري الإنسان ويغني حياته، وأتى لهم القدرة على الإتيان بمجديد روحي قادر على التأثير بمسارات العالم المادية...؟ بينما يبقى إيمان الإنسان بخلود وجوده يعزز قوى روحه، ويشحذ طاقات فكره، ويفجر ينبوعا دائم التدفق من الغبطة الجليل بالحياة.

إن الترابيين الذين لا يجدون في المصير الترابي الذي سيؤولون إليه - في زعمهم - ما يوجب الرعب، ولا يرون في ضياع أفكارهم وأحلامهم وأملهم بالحق والعدل والخير والجمال ما يبعث على الاحتراق أسفا، ولا همهم أشواق أرواحهم ولا أفكار أفتدعهم...

أولئك المبشرون بالبقاء، والمترغون بالعدم... كم جلبوا على البشرية من خطايا، وأتوا على الإنسان من عذابات، وجرعوا العالم من ويلات... فكم من مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته مرّوا عليها بعيون عمي، وكم من ينبوع من الجمال الأقدس لم يرشفوا منه -على شدة ظمأهم- ولو رشفة واحدة، وكم من سطور على صحيفة الكون خطّها القلم العلوي لكنهم لا يحسنون القراءة.

الجذب الروحي

إنّ خطورة "الجذب الروحي" أنه لا يتوقف عند حد، بل يمتدّ في تصمره حتى يأتي على منابع الفكر والإدراك، ويحتاج بسُموه حديقة الوجدان. وعند ذلك لا يأتي من الإنسان شيء ذو بال، بل لا يمكننا أن نتصور إلى أيّ درك يمكن أن يتردّى إليه مثل هذا الإنسان المجذب من كل مكان. بل ما جدوى ما أُنجزه الإنسان من عظام الأمور، وحققه من جلائل الأعمال، إذا كان مصير ذلك الزوال والعدم؟! ومن ثمة فما جدوى وجوده هو بالذات؟ وما جدوى الوجود بأسره الذي يبدو -من غير الحياة الآخرة- فارغا من المعنى والمغزى؟! فالمتأمل عندنا نحن المسلمين، هو تلك النقطة من الحياة التي يصل إليها الإنسان لسبب ما وينعدم عندها وزن الزمن الدنيوي عليه، فينفلت من جاذبيته، وينفك من قيده، ليبلغ فضاء الزمان الأخروي الأبدى والسرمدى، مثله مثل الفضائي الذي لا بُدّ له من المرور في نقطة "انعدام الوزن" قبل أن يتيسر له الانطلاق منفلتا نحو الأعماق من أمعاء الكون المهول.

لقد كان هذا المفهوم عن "الموت" حاضرا دائم الحضور في أذهان المسلمين الأوائل، وكانوا في أوج حسهم الأخروي يوم خرجوا على الدنيا بمضارهم الزاهية التي أثّرت الروح الإنساني، وأمدّت شجرة الحضارة بالحياة والرواء قرونا عدّة، ولم يجدوا أنفسهم أبدا في حاجة إلى ختن هذا الحسّ، وإيقاف نبضه من أجل أن يحسنوا التفكير، ويحيوا الإبداع، ويربحوا الأستار عن أسرار الأشياء، بل كان الأمر على العكس من ذلك تماما، حيث غدا هذا الحسّ دافعا ومحفزا لرغبات المسلمين في الخلود عبّر أعمالهم وأفكارهم ومعارفهم، ما دامت ستكتسب شرف رضا الله وقبوله والثواب عليها في حياتهم الأخروية.

الانعتاق من أسر الخلود

وقد استطاع "النورسي" رحمه الله تعالى أن يشخص أزمة

المسلمين منذ البدايات الأولى للقرن العشرين وعزاها إلى فقدان القابلية الحضارية فيهم على التواصل ومواكبة الزمن، بسبب تعطل المحرك لهذه القابلية بمخمود لب التوق للانعتاق من أسر "المحدود" والامتداد بأفكارهم وأعمالهم في "اللامحدود" وبهمود حماسهم في كسر قيد الزمن الدنيوي عن أفكارهم وأعمالهم، بحيث تكتسب شرف الامتداد في الزمان الأخروي الذي تُصَبّ في حافظته جميع الأعمال والأزمان، ولم يعد "الخلود" هاجسهم الأول ومحركهم الدائم في العمل والفكر، فلم يدعوا مثلما كان يدع أوائلهم، ولم يستطيعوا أن يضيفوا في الفكر أو العمل شيئا مهما يمكن أن يسجل باسمهم خلال ذلك القرن.

"والنورسي" يرى أنّ خلق الإنسان وإلباسه لباس الوجود كرم إلهي، وعطاء رحمني، لا يمكن عقلا وحدها أن تستردّ الكريم حياته، أو يسترجع عطاياه، فطالما أعطانا الوجود -جلّ شأنه- فلن يسلبه منا.

والنورسي لا يبي يؤكد على طهر الحياة وقديسيته، وأنها أصل الخلق والوجود، بينما "الموت" خلُق عارض ليس له قوة إلغاء الحياة، أو لإيقاف مدّها الرخّار إلى بحر الأبدية والخلود، فالوجود له صورة معنوية في علم الله تمثل مُقدّراته الحياتية، وهي تُلازم صورته المادية وتنقل معها في مراحل نموها، ثم تتبدل تلك الصورة والمقادير مع مسيرة حياته تبدا بلائم الحكمة في خلقه، وينسجم كلياً مع المصالح المركبة عليه.

فيقدر ما في نفوسنا من توق وحنين فطري إلى مشاهدة الجمال والأنس به والانجذاب إليه، فإنّ الجمال نفسه يبادلنا هذا التوق والشوق، ويطلب لنفسه صفوة من المشاهدين النواقيين الذين يحسنون المشاهدة، ويتأقنون في حضرته، ويظهرون أحاسيسهم ويهيئونها بين يديه، وإنه ليرفع بانشداه أرواحهم وعرشة أفلدّهم بإزاء ما يلمسونه من فخامة جماله وعظمة معناه، ويدعوهم لكي يصعوا إلى نعم ألوانه وأصواته، ونبل لفته.

وفي تعمقه في سرّ الجمال والجميل يكشف "النورسي" سرّ الخلود الموعودين به في عالم الغيب، فيلخص هذا السرّ بهذه العبارة الوجيزة: "أبدية الجمال تستلزم أبدية الحب المشتيا". ■

٥٠ كاتب وأديب عراقي.



ترجم إيمانك إلى عمل واجمع بينهما تكن مؤمنا حقاً... رؤى
نفسك على ذلك، وارفع مشاعرك إلى آفاق السرمديّة... إنّ فعلت
ذلك، أتاك العالم متطامناً بين يديك تحركه كيف تشاء...
...

مدرسة تركية في مصر

مدرسة صلاح الدين الدولية

أ.د. محمد الأحدي أبو البر

هذه باقة بصرة يانعة، وأتية عطرة يانعة، مهديةا للبلد أحبوا مصر

وأثروها بهذا الصرح العملاق "مدرسة صلاح الدين الدولية" فبنوا

بذلك في قلب كل مصري صرحاً من الحب الوثيق، والتقدير

العميق، للشعب التركي الشقيق، قمة ووسطاً وقاعدة.

عن بإزاء ركائز ثلاث: ١- المدرسة، ٢- صلاح الدين، ٣- الدولية.

تمثل هذه المدرسة قيمة حضارية بأسقة، تعي المجال المهياً والملائم للتربية

والتعليم، وسط مجتمع نموذجي يضم الطلاب الذي سيفدون إليها من شتى ربوع

مصر، ومن مختلف أطيافها ليحظوا برعاية علمية رفيعة المستوى يتسابق فيها

هـ





أبنائهم وتلاميذهم؛ لا بين لدائهم وأترامهم فحسب، وإنما بين النماذج المثقوة عالميا ودوليا.

فأي مستوى رفيع ذلك الذي تسعى مدرسة "صلاح الدين الدولية" إلى بلوغه وتحقيقه؟

قد رشّحوك لأمر لو فطنت له فاربا بنفسك أن ترعى مع الحمل وسرى الأساتذة أن تلاميذهم عدوا أبناء بررة لهم، تعمق في قلوبهم قيم التوقير والإحلال، وتعمّم في نفوسهم شيم المحبة والإكبار لمعلميهم الآباء، وآبائهم المعلمين الذين أعطوا المثل في الثقافة الواسعة، والعلم العزير والأبوة الحانية.

وأكد أوقن أنه سيكون لذا وذاك رد فعل حميد بل ودود لدى السادة المدرسين؛ يدفعهم إلى مضاعفة الجهد، وبذل أقصى ما يستطيعون لتنمية مهارات أبنائهم، بغمرهم الرضا ويحدوهم الأمل، ويخوهم مزيج من السعادة والثقة.

وعندئذ سترى كيف ستعود للمدرس هيئته، وكيف ستعظم مكانته الأثيرة في نفوس تلاميذه وبنيه.

أجل، وسيلمس المدرس -وهو في المدرسة- كأنما هو في بيته يحوطه بنوه بما يجب عليهم نحوه من بر وتوقير لقاء ما يلتقيهم -هو- من عطف ومرحّة، وتعليم وتربية، وحرص حريص على أن يبلغ هم أرفع مستوى علمي وأخلاقي معا.

أبوة الأستاذ وبنوة التلميذ

هذا، وذاك، أعني الأبوة من الأستاذ والبنوة من التلميذ هما مفتاح النجاح والتطور والإبداع في العملية التعليمية.

وقد اضطفى الله تعالى نبيه محمدا ﷺ معلما للدين، ومزكيا للخلق كما قال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: 164).

وإذا فقد بعث الله نبيه ﷺ معلما، كما بعثه متمما لمكارم الأخلاق؛ وفي الأمرين عز الدنيا وسعادة الآخرة.

شخذ الهمة، بتوقد العزيمة، باكتشاف الموهبة، باستثمار هذا وذاك في تنمية علاقات التنافس العلمي، والتآخي الإنساني والتعاون العالمي، والذي ينشأ في مراحل هذه المدرسة ليتساق مع طموحات أبنائها حتى بعد أن يتخرجوا فيها مهما تناعت هم الأقطار، أو تنوعت فيهم التخصصات، أو تفاضل بينهم الزمن.

أساتذة وطلاب

وأحسب أن يجمع المدرسة سيمثل بأطيافه الدولة مصغرة؛ ويوجه إلى فحج التعاطي والتفاعل الذي ينبغي أن تكون عليه العلاقات بين المواطنين؛ الأمر الذي سيراه الطلاب مطبقا في هذه المدرسة ذات السمات المتميزة، والتي سيرون فيها اختلاف المواد، وتنوع التخصصات، بيد أنهم سيعلمون عن أساتذتهم قوة التلاحم بين أصول هذه المواد، وعمق التآخي بين غاياتها، وذلك لتكون المواطن الصالح أسريا وجماعيا، والطلاب النموذج علميا وأخلاقيا، والتلميذ الإنسان محليا ودوليا.

وأحسب أن الأساتذة -هنا- سيمثلون بأفاقهم الثقافية الرحبة وبأخلاقهم الإنسانية السمحة مثالا عليا يبد فيها الطلاب نعم الأسرة ونعم المثل! كما أحسب أن عاطفة الأبوة ستكون صاحبة القدح العلقي في المدرسة لدى مدرسيها. وسيلمس الطلاب مدى حرص أساتذتهم على إفادتهم علميا، وعلى تركيبتهم أخلاقيا، بل سيرون هؤلاء المدرسين أشد ما يكونون حرصا على تفوق





بسن أيوب المظفر صلاح الدين الأيوبي، الملك الناصر (٥٣٢-٥٨٩هـ/١١٣٧-١١٩٣م).

أصله من أذربيجان، وولي أبوه أعمالاً في بغداد والموصل ودمشق هذه المدينة التاريخية التي كانت حاضرة الخلافة الأموية، وبها نشأ صلاح الدين، وترعرع بين أفيائها العلمية وثقافته وارتوى من الأدب، وروى الحديث بها والإسكندرية، فبينه وبين كل شاد في الفقه والأدب والحديث صلة حميمة، وآصرة وثيقة، ووشيجة تاريخية. نذكر له بكل الفخر والاعتزاز أنه رغم قساوة الظروف السياسية -آنئذ- وتجمّع الغرب كله على الشرق ما وهن ولا ضعف ولا استكان، وبفضل الله عليه ثم بعنق إيمانه، وصدق يقينه، ورأى ثقافته الفقهية والحديثية والأدبية استطاع أن يقود الأمة ويعبر بها من الفرقة إلى الوحدة ومن الضعف إلى القوة ومن اليأس إلى الأمل، وكون القوة العلمية والإيمانية والعسكرية، كما شجّد عزائم الجيوش، وجنّد طاقات الشعوب حتى دانت له البلاد من آخر حدود النوبة جنوباً إلى برقة غرباً، ومن بلاد الأزمّن شمالاً إلى الجزيرة والموصل شرقاً، فرد الأعداء على أعقابهم حتى ولّوا مدبرين، واسترد عكا وطبرية ويافا والساحل الشمالي إلى ما بعد بيروت، كما حرر بيت المقدس.

وكم لذكرى صلاح الدين من حقوق، وكم لصلاح الدين علينا من واجبات: أن ندرس تاريخه المشرق، وإبائه المشرف لتتملى دروسه وما فيها من عبرة.

أيضاً نأخذ من صلاح الدين العلم والعمل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين يعتدون على المسلمين هي السفلى والله عزير حكيم.

صلاح الدنيا بصلاح الدين

بيد أننا نأخذ "صلاح الدين" بمفهوم الكلمة المركبة وليس فحسب مفهوم أمّا علّم على الملك الناصر... صلاح الدين، أي صلاحية

بيد أن نجاح المعلم يكمن في حرصه الحريص على هداية من يعلمهم ثم في رافقه هم وحزنه عليهم، ولا يتم ذلك إلا بالأبوة الحانية التي ينسب عنها قوله ﷺ "إنما أنا لكم مثل الوالد، أعلمكم" (رواه أحمد). وبالتشامخ بين الأبوة والتعليم فيها تجسّد لنا المدرسة أمراً من أمد بعيد:

كان حُلماً، فحاضراً، فاحتمالاً ثم أضحي حقيقة لا خيالا أعني ما سبق أن تعنّى به الشعراء، وتَمَنّى تحقيقه الآباء، عرفانا بحق المعلم، وتوخيا لحسن الإفادة منه، وقياماً بما يجب له من حق؛ حيث قال قائلهم:

قم للمعلم وقمّ التحيلاً كاد المعلم أن يكون رسولا أعلّمت أشرف أو أجل من الذي بيني وبينى أنفسا وعقولا وسندرك بعدد أن المواهمة بين المحلية والدولية، وبين الدين والدنيا، وبين العلم والخلق، وبين التربية والتعليم، وبين الأبوة والتدريس... إلى آخر ما تتميز به هذه المدرسة... سندرك أن هذه المواهمة هي التي ستطوّرنا من الطلاب بالنموذج الفريد في بيته، والمتميز في ثقافته، والبار بآبائه في بيته ودراسته، والصادق النافع لمجتمعه وبيته، والسفير بعلمه وإبداعه إلى العالم -بعدئذ- من حوله.

وهذا النموذج الفارد من الطلاب، هو الذي يرى فيه القاصي والداني: أن يكون منه بمشية الله وعونه: العبري والمبتكر والمفكر والمخترع، مع نبل في النفس، وزكاء في الخلق، وسمو في السلوك. وهذا النموذج الفريد هو الذي سيتجدد لنا به خطاب الدين متسقاً مع العقل والعلم والحكمة مبشراً بمحاضر مشرق وغد. واعد مصداقاً لنحو قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً سَعِيدَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧). ذلك وقد أحطنا بالركيزة الأولى خيراً.

إجماءات من اسم "صلاح الدين"

أما الركيزة الثانية فهو أمّا مدرسة صلاح الدين. وهو يوسف

رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿١-٥﴾، ثم أخذوا يدرسونه يحفظون القرآن والسنة، ويتفقهون في الدين ويعملون بما حفظوا وفقهوا وعلموا إلى آخر نجم أنزل الله سبحانه فيه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (البقرة: ١٥٠).

ومنذ النجم القرآني الأول كان العلم والعمل والتعليم؛ فكانت الربانية علما وعملا، ثم تبوعوا الدار عن بعد والإيمان عن قرب، فأجبا كل من هاجر إلى الله وكل من بهاجر إلى الله، وأعادوا السيرة العطرة للأصهار فأحبوا وآثروا وصبروا وصابروا وآووا ونصروا وكتلوا وآزروا كل طالب علم مهما كان لونه أو لسانه أو فكره أو فطره، ونشروا الإيواء لطلاب العلم أينما كانوا، ونصروا التقدم العلمي حيثما همم به ذووه، وأجبا كل حب لله ورسوله وبنلوا دون مقابل، وتكلفوا دون توقف على كافل، ولا تكاد تطلع منهم على قيادة أو قاعدة كأنما كلهم قادة أو كأنهم كلهم قاعدة لا رئيس فيهم ولا مبروس، أذاب الحب في الله الفوارق وأبدلهم بها حبا وتغانيا وإيثارا وعملا لا للنفس، فأبى إحسان بعد هذا الإحسان، وأبى إيثار بعد هذا الإيثار، وأبى حب لله ورسوله، وأبى حب في الله ورسوله اتسم به هذا الفريق التركي في شمله التنظيم وأمره الجميع، وتضحياته الفريدة! لمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

اللهم أيدهم بأيديك، وشد أزهم بجمدك، وهبهم ولنا من أمرهم وأمرنا رشدا. لقد قلت وقولك الحق: "وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" (النساء: ٦٩)، وأذنت لنبيك محمد ﷺ أن يقول: "المرء مع من أحب" (متفق عليه).

اللهم أتم تقواهم، اللهم أسعدهم بشار أعمامهم هذه الصالحة في دنياهم ثم في آخرهم. اللهم إنا نخسب أنهم ممن علموا فأحسنوا، وأبلوا كذلك فأحسنوا. اللهم اجعلهم من الذين قلت في جزائهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (برس: ٢٦)، ومن قلت فيهم: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ اتَّقَوْا فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزمر: ٢٠)، وتقيل عنهم أحسن ما عملوا، وأنعم عليهم بمعية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ■

الدين لسياسية الدنيا في كل زمان ومكان.. صلاح الدين، أي إصلاح الدين لدنيا الناس بالحكمة وحسن الموعدة والنصيحة لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. وليس بأي سلوك آخر؛ فقد أمر الله أن نقول للناس حسنا، وقد هيى الله أن نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن.

وحين يتذاكر أبناء المدرسة هذه المعاني فسيترجموها عرائم متقدمة، وإرادات فاعلة، وآمالا لا تنفوس لتحقيق ما يصبون إليه من غاية، وما يرنون إليه من تخصص، وتفعيل كل منهم ما آمن به من أنه كمؤمن ينبغي أن يأمنه الناس على دماهم وأموالهم وأعراضهم، ومن أنه كمسلم يلزمه أن يسلم الناس من أذى لسانه ويده، ومن أنه كمهاجر إلى الله ينبغي أن يهجر ما هيى الله عنه، ومن أنه كطالب وداوس للعلم ينبغي أن يعد نفسه ليتفوق في تخصصه ثم ليكون سفيراً لمبادئه وقيمه، فيكون عنوانا للأمن والعدل والسلام في مجتمعه خادما للثقافة والمعرفة أين كان، تطبيقا منها للسماحة والتآخي والرحمة والتكافل والتعاون على البر والتقوى حيثما كان، لا على الإنم والعنوان.

عالمية الرسالة

إن رسالة الطالب في مدرسة صلاح الدين الدولية والتي يعد نفسه لها بالعلم والتفوق فيه، وحسن الخلق والتطبيق له.. إن رسالته ليست محلية، إنه بعد فترة سيكون -بإذن الله- خريج هذه المدرسة الدولية، وهذه هي الركيزة الثالثة التي تقوم دليل صدق كل من أسهم وخطط وبين وشيد.

إن طابع العالمية واضح وطابع الإيثار بالخير للغير أكثر وضوحا، وطابع حب الإنسان لأخيه الإنسان أين كان أوضح من أين يحتاج إلى برهان.

ثم إن طابع العمل لإسعاد الناس مهما تأت بهم الدار أو اشتط بهم المزار غدا أوضح من الشمس في رابعة النهار.

الأخوة التركية-المصرية

فماذا نقول في الاخوة الأعزاة أشقائنا الأتراك الذين تمكنوا من سويداء القلوب، وتربعوا على عروس النفوس حبا لهم وإكبارا لمكانهم وإعزازا لمكانتهم.. إنهم فتية آمنوا برهم، وأنكروا ذواهم، وضحو كثيرا وكثيرا من أجل إسعاد غيرهم...

إنهم فتية آمنوا برهم وزادهم الله هدى وآتاهم تقواهم. ولا غرو فقد تفرجوا في حراء، بدءا من النجم الأول: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ

(*) عضو مجمع البحوث الإسلامية وزير الأوقاف الأسبق / مصر.

إشكالات الحياة وغاية الوجود

القضية المضنية التي أضنت العقول، وأفضت المضاجع هي قضية معنى الحياة وغاية الوجود، وقد كرّس لها الأستاذ "فتح الله كولن" العديد من كتبه ومقالاته، وراح يتأملها متجاوزاً الحلول السطحية التي لا تلامس الوجدان البشري ولا تتعمق في طواياها. فمطالب هذا الوجدان رفيعة جداً، وأشواقه ومطامحه عالية جداً، تتجاوز المحدوديات ولا تتوقف إلا عند اللامتناهي والمطلق الإلهيين... ومن هذه النقطة يأتي مقال الأستاذ "كولن" الموسوم بـ "الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي" ذاهباً معه إلى جذوره في أزلته الأولى وأبديته الخالائية. وفي هذا الفكر تكمن الأجوبة على كل التساؤلات التي يثيرها العقل ويشعر بها الوجدان.

وجذور هذا الفكر الماورائي لا يعني بأي حال من الأحوال أنه لا يحسن معالجة إشكاليات الواقع الاجتماعي، فمقال الأستاذ "محمد عمارة" عن الفرد والطبقة والأمة، يأتي ردّاً على مَنْ يذهب به الوهم إلى حدّ اتهام الإسلام بالقصور عن معالجة إشكاليات المجتمعات البشرية أفراداً وطبقات وأماً، لأن "الوحي" بنظره الشمولي والجمعي لا يمكن أن يُعقل الجوانب الاجتماعية وما تردّد في من إشكاليات.. وكما للفرد أحلامه فإنّ للأمة كذلك أحلامها، ولعلّ واحداً من أعظم أحلامها هو "سكة حديد الحجاز"، هذا الخط الذي كرست الدولة لإنجازه والسلطان عبد الحميد الثاني نفسه كل الإمكانيات الفردية والشعبية من مال وجهد وعرق وتعب. وقد كتب الأستاذ "صالح كولن" عن هذا الخط المهم، وكيف بدأ حلمًا ثم انتهى واقعا.. والدكتور "عمار جبدل" في مقاله الموسوم "الطريق السريع، المسلك والسالك" يهدينا إلى أقصر الطرق كما هو عند الأستاذ الروسي لنفعم وجودنا الأرضي بالجهد والعرق ونجّاهم العقبات بأسرع ما يمكن للوصول إلى ذلك الشعور المشتق من الإيمان كأفضل ملاذ للروح التي تناضل من الخروج من ظلمة الشرور الدنيوية إلى نور الأخروية الأبدية..

وفي باب "دراسات إسلامية" يتحفنا الأستاذ "فريد الأنصاري" بمقاله الموسوم "كلمة الله في معركة السلام" مبيناً فيه أنّ عصرنا عصر "الكلمة" وأنها مفتاح لكل المغاليق والإشكالات. فالكلمة فكر متحرك ووجدان مشع، فالكلمة القرآنية يمكنها أن تغذي روح الخليفة بأجبعها ومن جذوبها الخفية تنقد شعلنة الخلود والأبدية منيرة عوالم الإنسان الفكرية والوجدانية وابتاعة للسلام والأمان في أرجاء الروح...

وبعد، نرجو أن نكون قد وفّقنا في إعطاء قرأتنا الأجزاء ملامح من موضوعات هذا العدد المتنوعة، مع الاعتذار للأخوة الأساتذة الذي لم نُنسج لنا التنويه بمقالاتهم على أهميتها، والله الموفق... ■

حراء

مجلد علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

العدد السادس عشر - السنة الرابعة (يوليو - سبتمبر) ٢٠٠٩

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:

İşık Yayıncılık Ticaret A.Ş.
İstanbul/Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسائلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير

أشرف أونين
coenen@hiramagazine.com

المخرج الفني

مراد غرابجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul/Türkiye
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ شارع الفراعنة - حي الفلاح - مصر القاهرة
+90222631551
تلفون وفاكس: +90216523088
تلفات الجوال: جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية

Yayın Türü

Yayın Süreli

الطباعة

Çağlayan Matbaası
İzmir - Türkiye

Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتناول أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور الفرائي الإنساني في تألف وتناوب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تنمّع بين الأصالة والمعاصرة وتقدم الوسيلة في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع السعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء، وإغادته فيما يقبض لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمنهجية عالية مع التبسيط والمراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل حديثاً لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، والمحللة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرحى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المحلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إنجازها للنشر.
- المحلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلزم بإعادة أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المحلة بمحق في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسباً.
- النصوص التي تنشر في المحلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المحلة.
- للمحلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلفظه الأصلية أو مترجماً إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمنح أو التقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرحى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المحلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com



حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

إن الواجب علينا اليوم هو أن نكافح من أجل الحفاظ على ذاتيتنا بالارتباط
بمنظومتنا العقيدية والفكرية والتوجه نحو ثقافتنا ونتائجها.. وأن نقوم بتحقيق
ألوان جديدة من الفكر والعرفان فوق أطلسنا الفكري.
